غراتسيا ديليدّا

GRAZIA DELEDDA

أرز لبنان وقصص سردينيا

IL CEDRO DEL LIBANO

ترجمة: نبيل رضا المهايني

أرز لبنان
وقصص سردينيا

IL CEDRO DEL LIBANO

غراتسيا ديليدّا
GRAZIA DELEDDA

ترجمة: نبيل رضا المهايني

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي
IL CEDRO DEL LIBANO

الطبعة الأولى
2016 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1859-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

في الليل 7

الساحر 37

السحر من جديد 45

رواية بالحد الأدنى 55

السّيدة البيضاء 67

في الحظيرة 81

الأب 95

بين الأحراج 111

أرز لبنان 121

أهمّ الأعمال 129

نبذة عن سيرة المترجم 131

كتب صدرت للمترجم 133

في الليل

من الممكن[1] أنّها كانت الحادية عشرة عندما استيقظت الصغيرة غابينا في السرير الخشبيّ الكبير في الغرفة العلويّة حيث كانت تنام على الدوام مع أمّها التي كانت تحبّها حبّاً جمّاً.

لكنّ أمّها لم تكن تلك الليلة إلى جانبها. لماذا لم تكن هناك؟ حيثما حاولت غابينا مدّ يدها الصغيرة في أنحاء السرير الخشبيّ الكبير فإنّها لم تتمكّن من أن تجد أمّها. هناك فقط الشرشف البارد كالريح، هناك فقط الوسادات القطنيّة الحمراء، ولاغير ذلك!

أين كانت أمّها إذن؟ كانت غابينا تستلقي عادة في سريرها مع أمّها وتنهض منه معها، ولم تجد نفسها وحيدة في السرير البتّة. أمّا الآن فهي وحيدة في السرير البارد الكبير، في عتمة الليل المرعبة.

كان ذلك إذن حدثاً عظيماً بالنسبة للصغيرة.

– ماما...ماما... نادت همساً.

لكن لا جواب. كانت الريح تصفر في الخارج والأمطار تقرع بصخب على زجاج النافذة الصغيرة.

بدون هذا كان بوسع غابينا أن تخلد للنوم من جديد. لكنّ ذلك الضجيج الجهنميّ وسط الظلام الدامس الذي يسود الغرفة المنعزلة

(1) نشرت هذه القصّة ضمن كتاب «مختارات من الأدب الإيطالي الكلاسيكي»، بقلم المترجم ومنشورات الدار العربية للعلوم ناشرون.

جعل من المستحيل عليها أن تعود للنوم وأن تهدأ.

كانت تخشى كلّ الأشباح التي يمكن تخيّلها: الموت، مصّاصي الدماء، أبو الريح، الساحرات السود والغول، كلّهم... كلّهم...

– ماما...ماما؟...

بقيت هكذا لما يقارب الربع ساعة، ترفع صوتها تباعاً وتتعوّد على الظلام وصخب الرياح.

وبما أنّ أمّها لم تجبها فقد فكّرت غابينا بأن ترتدي ملابسها وتنزل لتبحث عنها في المطبخ. لكن كيف تفعل ذلك وأمّها هي التي كانت تلبّسها كلّ صباح، لأنّها هي الصغيرة لم تكن قادرة بعد على ارتداء السترة السوداء ذات الأكمام الضيّقة. لكنّ هذا لايهمّ الآن... على أن تجد التنّورة وحسب. كانت تتركها على الكرسيّ قرب السرير: لذلك كان لابدّ من النزول للعثور عليها.

النزول؟ ...النزول في الظلام، حافية، في ليلة مماثلة، النزول من السرير، وحيدة؟...لابد لهذا من شجاعة كبيرة، وتردّدت غابينا لفترة طويلة وهي ترتجف برداً وخوفاً. لكن ليس من صالحها البقاء في السرير بدون أمّها! كان عويل الرياح يزداد حدّة ولابد أنّها ستتسرّب بعد قليل إلى الغرفة لتلتهم رأس غابينا...هيّا إلى الأسفل إذن!

نزلت وأطلقت صرخة. ذلك أنّ قدمها الصغيرة اصطدمت بشيء صلب، بشيء بارد، بشيء أعوج لم يكن حتماً الأرضيّة الخشبيّة الملساء التي تم تنعيمها منذ عهد قريب....

ضفدع، أو ربّما مصّاص دماء؟

- ياأمّي... ياأمّي!...صرخت الصغيرة بصوت حاد مرتقع، وهي تسعى عبثاً أن تعود إلى سريرها، في النهاية لم يتحرك أيُّ مصاص دماء وبقيت أمّها على صمتها لا تجيب، فانحنت وتأكّدت أنّ ذلك الشيء كان مجرّد حذاء قديم خرج صدفة من تحت السرير.

اعتلت شفتيها ابتسامة، فقد ملأتها تلك المغامرة الأولى بكثير من الشجاعة، ثم عزمت على ألّا تخاف شيئاً على قدميها وتقدّمت وهي تستند إلى حافّة السرير. لكنّها لم تجد في الأسفل أيّ كرسيّ عليه ملابسها، فبدأت تعتصر وتشتُم، لأنّه يجب أن تعلموا أنّها لم تكن أنموذجاً عن التربية الصالحة، وهكذا فقد تلت بلامبالاة أسماء كلّ شياطين الجحيم كما كانت تسمعها من جدّها وأخوالها وشيئاً ما حتّى من أمّها.

لدى أيّ شيطان هي إذن ملابسها؟ هل أخذها عفريت؟ اللعنة على الليل وعلى من اخترعه!...

لكنّها نسيت للحظة هذا كلّه وعادت ترتجف برعشات قويّة بدا معها أنّ أسنانها ستنخلع.

خلال فترة صمت انقطعت فيها الريح عن العصف والمطر عن الهطل سمعت أصواتاً غريبة تصعد من المطبخ وأصواتاً بشريّة أشدّ كآبة ورعباً من عويل العاصفة.

ماذا كان يحدث في المطبخ؟ ياإلهي، ياإلهي، وأمّها؟ هل كان هناك ربّما لصوص أو شياطين؟ خاصّة وأنّ الجدّ والأخوال غائبين منذ ثلاثة أيام ولا يوجد أحد يمكنه أن يدافع عن أمّها، أمّها المسكينة!... اجتمع الفضول مع الخوف فعاودت غابينا البحث عن تنانيرها

واصطدمت بالكراسي وبكلّ الأثاث البائس في الغرفة المظلمة. أفلحت أخيراً في العثور عليها فارتدتها بصعوبة، لكن ما إن بدا أنّ كلّ شيء على مايرام حتى برزت عقبة أخرى أمام خطّة الصغيرة. فالباب الذي يؤدّي إلى الدرج كان مغلقاً بالمفتاح من الخارج، ولم تفلح كلّ الجهود التي بذلتها في فتحه، كما بقي صمت أمّها المرعب مخيّماً عندما عادت ونادتها، وهي تهزّ الباب هزّاً ذا ضجيج.

عادت نحو السرير وخبّأت وجهها في فوضى ملاءته وبدأت تبكي، لكنّها تذكّرت فجأة أنّ هناك في الغرفة المجاورة شرفة حجريّة تفضي إلى درج خارجيّ ينزل إلى الفناء ثمّ إلى باب قديم يؤدّي إلى المطبخ.

تواصلت الأمطار والرياح، لكنّ غابينا كانت مصمّمة على كلّ شيء: دخلت الى الغرفة القريبة وفتحت باب الشرفة ثمّ نزلت متحدّية الأمطار التي كانت تهطل بعنف من السماء الرصاصيّة المنخفضة، والرياح الجليديّة التي كانت تعصف في الليل.

كانت ترتعش كورق الشجر رغم أنّها نسيت تماماً الأشباح ومصاصّي الدماء. فقد كان هناك قلق مبهم يعصر قلبها الصغير وحدس مرعب لايستوي مع عمرها ينبؤها أنّ هناك في المطبخ أمراً ما يحدث. أجل... فتلك الأصوات التي سمعتها!...وصلت في لحظة واحدة إلى تحت الدرج وأصبحت محميّة من المطر فانتصبت أمام باب المطبخ. كان هذا مغلقاً أيضاً، لكنّ غابينا لم تطرقه ليُفتح، رغم أنّها رأت وهج النار المشتعلة في الموقد من خلال الشقّ الكبير الممتدّ على طرف الباب، من أعلاه إلى أسفله.

لم تعد تخاف، لكنّها لم ترغب بدخول المطبخ لأنّ أمّها ستضربها حينئذ من كلّ بدّ.

كان الجدّ والأخوال قد عادوا وجلسوا حول الموقد، وهم ثلاثة رجال سمر غلاظ ضخام تنمّ أزياؤهم الرثّة القذرة عن نوع حياتهم وعملهم البائس المتواصل المرهق، وتوحي عيونهم القاتمة الغائرة بقصص حزينة ترويها نفوسهم الجاهلة التي لم يقهرها الفقر بمقدار ما عكّرتها الأهواء الكئيبة الحارقة المؤلمة.

أمّا أمّ غابينا واسمها سيمونا فكانت صبيّة جميلة تتمتّع بذلك الجمال الغريب ذي السمة العربيّة التي تطغى على كثير من نساء ساردينيا والتي تذكّر بالمشارقة المسلمين[1] الذين سادوا الجزيرة بعدما غزوها في القرنين التاسع والعاشر. بقيت سيمونا في الظلّ وهي جالسة على الأرض وقد صالبت يديها على ركبتيها، وكانت حافية وترتدي قميصاً بأكمام عريضة على الطراز الشرقيّ، ضيّقة عند المعصم ومجعّدة عند الكتفين الأنيقين.

لم يسبق لغابينا أن رأت أمّها هكذا باهتة متجهّمة، وإذا كان وجه أمّها حزيناً سقيماً على الدوام فإنّها لم تشاهد أبداً عينيها السودواين تلمعان بمثل هذه الغرابة.

تلوّن وجه سيمونا تحت المنديل الأسود المدلّى على جبهتها بلون قريب إلى لون الجثث، بينما علت قسماته الجامدة الناعمة جدّيةٌ كئيبة مخيفة، وأضاءت عينيها ظلالٌ بين الحقد والحزن.

---

(1) – Saraceni

لكنّ مالفت انتباه غابينا أكثر مالفته وأجبرها على البقاء في الخارج، هو رؤية غريبٍ جلس مع البقيّة قرب الموقد، لكنّ حبلاً من الوبر كان يشُدّ وثاقه إلى كرسيّ تذكّرت غابينا أنّه كان يزيّن المطبخ، ذلك الكرسيّ الخشن الذي كان مرميّاً في الزاوية، لا يلمسه أحدٌ رغم أنّ سيمونا كانت تنظر إليه أحياناً نظرة قاتمة كئيبة.

لم يسبق لغابينا أن رأت وجه الغريب قبل الآن رغم أنّه كان يرتدي ملابس أهل القرية، فبدأت تتفحصه باستغراب وهي تتساءل من يكون ولماذا هو هناك مقيّد في خضمّ الليل.

كان رجلاً جميلاً في الأربعينيّات من العمر، ينسدل شعره الأشقر المحمرّ الأجعد على جبهته العريضة المحروقة من الشمس، عيناه رماديّتان حادّتان وله لحية حمراء رائعة متهدّلة على صدره. كان هناك تعبيرٌ رهيبٌ ينمّ عن التشنجّ يمزّق ملامح وجهه بينما كانت تلمع على جبهته قطرات عرق كبيرة تعكس وهج النار، لكنّه لم يكن ممتقعاً مثل الآخرين وخاصّة مثل سيمونا.

لم تدرك غابينا بالطبع كلّ هذه التفاصيل، لكنّها فهمت تماماً أنّ أمراً غامضاً وغير عاديّ يحدث الآن في الداخل، أي في المطبخ المعتم المضاء بالنار وبشيء أشبه بمصباح بدأ ضوءه ينحسر، له أربعة رؤوس، مصنوع من تنك سوّده دخان الفتيل، وموضوع على الفرن. لم تكن قادرة على تفسير ذلك الأمر، فبقيت صامتة جامدة وراء الباب وقد ألصقت جبهتها على شقّه بينما جحظت عيناها الرماديّتان الشبيهتان جدّاً بعيني الرجل المربوط إلى الكرسيّ لتحملق بشجع وشراهة.

بدأ الرعب يدبّ من جديد في قلب الصغيرة – فقد تلاشى الفضول وأثقل الخوف السابق المقلق قلبها – وبدأت تتساءل فيما إذا كان كلّ الأمر مجرّد حلم.

أصاب عصف الرياح الجليدي كتفيها ولم تكن غطّتهما كما يجب، أمّا قدميها الصغيرتين ويديها فقد تغطّت بالثلج وتغطّى كذلك كلّ قدّها الصغير. كما أنّ المياه التي اجتاحت الفناء بدأت تصعد، وتصعد، وكانت الأمطار الغاضبة تغذّيها وتزيدها: لابدّ لهذا أن يجبرها على الهرب أو على أن تفتح الباب، لكنّها لم تدرك الأمر. كانت تشعر ببرد قارس ينخرها حتّى أنّها كانت تشعر برغبة مسعورة في البكاء، ومع هذا فهي لم تتحرّك...كانت هناك عقدة تعصر حنجرتها، وأصابتها أكثر من مرّة شهقات جافّة تشنجيّة جعلت شفتيها تتلويّان ألماً بعدما لوّنهما البرد والخوف بزرقة شاحبة.

لأنّ ماكانت تراه، وماكانت تسمعه، كان منظراً فظيعاً لابدّ أن يرعب أيّ إنسان، أفلا يرعبها هي، هي بشخصها الضعيف، هي التي لم تبلغ تسع سنين...

– إلياس، إلياس – كان أبو سيمونا يصرخ. – لن يفيدك الصراخ وطلب النجدة، لأنّ أحداً لن يأتي لنجدتك، وستحجب العاصفةُ صوت صراخك. لن يأتي أحد! عليك أن تموت هناك، مربوطاً إلى ذلك الكرسيّ الذي كنت تجلس عليه قبل عشرة سنين، هل تذكر أيّها البائس؟ كلّ ليلة...كنت الخطيبَ المحبّ الصادق! هذا الكرسيّ الذي حرصنا على حفظه لك طيلة عشر سنين..الذي كان ينتظرك..أمّا الآن فسنرمي به في النار بعد أن يتشبّع بدمك الجبان...

- دافع عن نفسك! – قالت سيمونا بكآبة. – إذا لم تقدّم حجّة، حجّة واحدةً على الأقلّ تبرّر سلوكك الحقير، فإنّ ميتتك ستكون رهيبة! فهيّا دافع عن نفسك! برّر أفعالك، وقد تنهي طلقة واحدة الأمر برمّته. وإلّا، فيا للمصيبة!...

- هل أنتِ التي تتكلّمين بهذا الحديث؟.. أجاب إلياس. – أنت يا امرأة، أنتِ التي كنت أرى الطيبة كلّها مجسّدة فيك؟ أأنتِ؟

- إنّي أكرهك، أنت الذي لوّثت شرفي، أنت الذي كنت خطيبي، حياتي، لقد خنتني، أضعتني! لقد قتل الحزن كلّ شعور إنسانيّ في قلبي: إنّي أكرهك، ولاأحلم منذ عشر سنين إلّا بالانتقام منك. وماهو الحزن الذي تشعر به هذه الليلة مقارنة بما عانيته أنا؟ إنّه الحقد بعينه، وأنا كنت التي شجّعت أهلي على الثأر...

- اقتلوني إذن!...تمتم إلياس. – لكن تذكّروا الضمير..تذكّروا أنّ إلهاً موجود...

- سنسوّي أمورنا مع ضميرنا ومع الله. – قال تانو، أحد الإخوة، بابتسامة قاسية شرسة كشفت عن صفّي أسنان شديدة البياض، قويّة مثل أسنان الوحوش، وكانت تلمع على وهج النيران.

- الضمير والله!...هبّت سيمونا مثل الحيّة. – وهل كان لك ضمير، هل فكّرت بالله أنت؟...

هنا أطرق إلياس برأسه، ثمّ أردف:

- باسم ابنتنا....

- إنّك تعلم إذن أنّ لي ابنة؟...

- أجل، إنّي أعلم، و سأجعلها ابنة شرعيّة إذا رغبت في ذلك. سآخذها معي وستصبح يوماً ما غنيّة، لأنّي أصبحت كذلك وليس عندي من جهة أخرى أولاد...

- كيف لك أن تتكلم؟ صرخ في وجهه بيترو، الأخ الثاني. - ألم تفهم بعد أنّك لن تخرج من هنا لا حيّاً ولا ميّتاً؟....ثمّ داعب لفترة طويلة سبطانة البندقيّة التي كانت على ركبتيه وقال بتؤدةٍ تنمّ عن قسوة: - سأصرعك أنا، أنا الذي كنت صديقك، أنا الذي أدخلتك إلى بيتنا حيث تركت المصائب ولوّثت الشرف. سأقتلك أنا بنفسي وأضعك أنا تحت الأرض، أيها الثعبان البائس الشرير! آه، مع من تظنّ أنّك تتعامل؟ مع من؟ كانت عائلتنا تنتقم دائماً لكلّ إهانة تتلقّاها، وفي هذه الليلة سنقوم نحن الذين بحثنا عنك خلال عشر سنين في كلّ قرى منطقة الباربادجا، في شعاب الجبال وفي طرق الوديان، نحن بالذات الذين سنغسل بدمك اللوثة التي شوّهت اسمنا.

- سيمونا، سيمونا!...تمتم السجين مرعوباً وهو يتوجّه إليها بنظرة توسّل

- ابنتنا...

- اسكت، لاتذكرها! إنها زهرةٌ ولِدت من خطيئة، لكنّها أيضاً مثل ثلوج الجينّارجينتو[1]! إنّك تدنّسها عندما تلفظ إسمها لأنّك نذل ولأنّك حقير..إنّك لست شيئاً بالنسبة لها...فأبوها هو الله!...

- إنّك لاتحبّينها ياسيمونا! حافظي على حياتي إذا كنت تحبّينها!...

(1) كتلة جبلية كبيرة في شرق وسط جزيرة سردينيا وفيها أعلى قمم الجزيرة.

لمع بريق في عينيّ المرأة القاتمتين.

- إنّي أعبد ابنتي ولاأعيش إلّا من أجلها. إذا غابت عن حياتي فإنّ كلّ أمر سينهار حولي وسأصبح أتعس امرأة بين النساء. إن كنت أحبّها! ابنتي! ابنتي المسكينة! إنّها كلّ حبّي وكلّ سعادتي! أكرّر عليك ألّا تذكرها. أمّا إذا ذكرتها، فإنّ هذا سيوقد حقدي وتعطّشي للانتقام، أنا التي لن تشعر بأيّة شفقة نحوك لأنّ هذا مستحيل بعد ما حدث لي. بل إنّي أتوق إلى الساعة التي أراك فيها تحت الأرض بحيث إذا سألتْني عن أبيها يمكن لي أن أجيبها بدون أن تحمرّ وجنتيّ: «لقد مات!...».

- لقد قُرّر الأمر إذن! صرخ إلياس. - اقتلوني إذن! ألاترون أنّي مستعدّ! سأعرف كيف أموت لأنّي لست جباناً كما تظنّون، وإذا كنت قد أخطأت فلم يكن هذا ذنبي، بل بالصدفة وبإرادة الله! اقتلوني!...

- اقتلوني! كرّرها ثانية صفير الرياح الكئيب في الخارج.

صمتت للحظة جميع الشخصيّات الخمسة في هذه المأساة الريفيّة المظلمة. خيّم هدوء رهيب علا الوجوه، بينما كانت النار تصبغ المنظر بلون دمويّ وبظلال جنائزيّة، حتّى بدا كأنّه منظر من لوحات لوحات كارافادجو[1] الداكنة.

- أخبرنا إذن لماذا خنتني دونما أيّ عذر وبعد سنتين من حبّ

(1) ميكيل انجلو كارافادجو (1572–1610) رسام ايطالي برع في استخدام الضوء لإبراز ملامح الناس النفسية والجسدية.

مشتعل! قالت له سيمونا في نهاية الأمر وهي مازالت على رأيها.
– إذا كنت تذكر كان علينا أن نتزوّج في الحال بعدما أصبحت أمّاً. ثمّ حدث أنّك سافرت على حصان محمّل بالكستناء والأجبان وأدوات خشبية، وقلت إنّك ستبيع هذه الحوائج في نوّرو لتشتري بثمنها خاتم الزوجيّة والجواهر...قلت إنّك ستعود بعد أربعة أو خمسة أيّام، لكنّك تركتني وأنا أغصّ بالدموع وأكاد أبكي... انقضت عشر سنوات، عشر سنين من الحزن، من الدموع والحقد، لكنّها تبدو لي الآن كأنّها حدثت في الأمس القريب...ولم تعد، عرفتُ بعد شهر أنّك تزوّجت من صبيّة في فونّي...احكي! إذا كان لديك عذر، أكرّر، سنقتلك بطلقة واحدة، وإلّا، كما أنّ المسيح حقّ، وحقّ أنّك جالس هناك، مقيّد، سنحرقك حيّاً!...

كانت سيمونا تتكلّم بلهجة حادّة جعلت رعشة الرعب تسري في كلّ جسم إلياس. ومع هذا فقد أخفاها وأجاب ببرودة: – لا أخاف لا النار ولا الطلقة، وسأخبركم بالذي حدث. لم يكن الذنب ذنبي، بل أكرّر إنّها إرادة الله!...اسمعوا!...– وبدأ:

– أجل، كانت عشر سنوات وهي تبدو البارحة! لقد سافرت وأنا أفكّر فيك وأخطّط لحياتنا في المستقبل...لكنّ الله شاء غير ذلك! كنت بعيداً عن فونّي حوالي ساعتين وكنت أنوي أن اقضي فيها الليل لأتابع رحلتي في الغد إلى نوّرو، لكنّ الثلج بدأ يتساقط، ولم ألتفت لهذا لأنّي كنت متعوّداً على كل الأنواء فتابعت عبر طريق متعرّج في ممرّات الجبال وأنا أسير على قدميّ وأقود حصاني المثقل بالأحمال. سرت وسرت. كانت الرياح ترمي بالثلج على وجهي وعلى ثيابي فيلتصق بها وبيديّ بل وبرموش عينيّ وبشفتيّ.

الخلاصة أنّ الثلج غطّى كلّ معطفي، كما غطّى أحمال الكستناء وصهوة الحصان، غطّى كلّ شيء، كلّ شيء على الإطلاق....

إختفت الطريق تحت الثلج، لكنّي كنت أظنّ أنّي خبير بالمكان فتابعت سيري بدون أن أكترث، تابعت على طريق مستقيم وعينيّ على الأفق حيث كنت أظنّ من حين لآخر بأنّي ألمح رسمَ فونّي. كانت الرياح تعول بجنون عبر الجبال بينما كان الليل يهبط، وكان الثلج يندف ويندف ويتجمّع فوق خطاي دون أن تظهر روح حيّة في عزلة الجبال الموحشة. ليس إلّانا أنا والحصان. بدأت قواي تخور وتبلّلت حتّى العظام وأظنّ أنّي ضعت، خاصّة وأن فونّي لم تظهر على طريقي وحصاني المسكين أصبح يرتجف ولا يتمكّن من السير قدماً. تعالت أكوام الثلج حتّى كانت الخطوة الواحدة تستغرق ربع ساعة. كما كانت حلكة الليل تزيد كلّ ساعة. ندمتُ عندها لأنّي لم أتوقف في كوخ صادفته منذ نصف ساعة قبل أن ينهمر الثلج رغم أنّ الراعي دعاني لأن أقضي الليل فيه بعدما تنبّأ بالعاصفة القادمة. يئست كلّ اليأس وفكّرت على حين غرّة بأن أستدير وأعود أدراجي نحوه. لكنّني قرّرت بأن أمتطي الحصان لأنّه كان من المستحيل عليّ أن أتابع سيري على الأقدام. غير أنّ الحيوان كان منهكاً أكثر منّي بما عليه من أثقال، فحرّرته من كلّ ماعليه من أحمال وحاولت ما بوسعي أن أضع الأغراض في مأمن تحت شجرة على آمل أن أجدها في الغد، ثمّ ركبت وانطلقت!

«هيّا! قلت بودٍّ لحصاني المسكين. – سنستريح هذه الليلة هناك وغداً ستشرق شمس جميلة تساعدنا على أن نعود إلى هنا. سنستعيد تجارتنا ونذهب إلى فونّي، ولن نخشى شيئاً عندما نصل إليها....».

لفترة وجيزة بدا أنّ الحصان يشاركني الرأي ويمضي، لكنّه ما لبث أن أبطأ حتّى انتهى به الأمر إلى التوقّف. وعبثاً حاولت أن أدفعه وأن أداعبه وأن أضربه، فقد حرن وتوقّف، فماكان منّي إلّا أن ترجّلت عنه لأسير على قدميّ وأنا أجرّ الحيوان المسكين ورائي.

أواه أيّة ليلة ليلاء كانت تلك الليلة! هدأت الريح، لكنّ الليل خيّم داكنًا موحشاً على وقع الثلج المتساقط المنهمر. كان هناك نور باهت يشعّ من الغطاء الأبيض الذي يكلّل الصخور فيساعدني على ألّا أهوي في جرف من الأجراف. لكنّه أغشي شيئاً فشيئاً على بصري وبدأت قدماي تنهاران تحت ملابسي الداخليّة المبلّلة، وبدأ جسمي يتجمّد ويهمد كالثلج الذي كنت أجرجر نفسي متأرجحاً عليه. وحدث أنّي وقعت مع الحصان في حفرة، ومع أنّي تمكّنت بصعوبة من النهوض فإنّ الحصان لم يحر حراكاً ولم أتمكّن حتّى من التفكير بمساعدته.

تابعت سيري: كنت كلّي مغطّى بالثلج وكانت قطرات دمع كبيرة تنسكب من عينيّ لتختلط مع الثلج الذي كان يبيّض لحيتي: أمّا يديّ فكانتا منسدلتين جامدتين هامدتين من تحت المعطف البارد الثقيل، بينما كانت قداماي تمشيان وتمشيان بصورة آليّة، تتأرجحان على لا هدى. ولم يظهر أيّ ضوء في الطريق، ولم يسمع أيّ صوت بشريّ عبر وحشة الجبال الرهيبة.

كانت القمم البيضاء تنتصب يمنة ويسرة وتضيع عبر سماء بلون الرماد. ولم أكن أرى شيئاً ورائي بسبب الضباب الذي كان يهبط ببطء من الأفق ويهدّد بأنّ يلفّني بعد قليل. كانت المنحدرات تنبسط أمامي وتحت قدميّ مليئة بالأخاديد والأجراف. لم تكن هذه حتماً الطريق

التي عبرتها قبل ساعات، لا، ولم يكن لذلك الكوخ أن يظهر ثانية لأنّي قد تهت الطريق! أواه، لماذا لم أتابع سيري نحو فونّي؟ ولربّما لم تكن بعيدة جدّاً عن ذلك المكان الذي تركت فيه أحمالي. ربّما.. ربّما...

انهارت قواي، بعد نصف ساعة من مسيرة مرهقة لا مجدية غطّاني الضباب وكان لاذعاً كثيفاً أسود، أحاط بي، فتابعت هبوطي مبتعداً عن آخر شعاع ضوء. خطوة أخرى ولابدّ أن أقع في هاوية ما، لكنّه كان من المستحيل أن أتابع سيري لأنّ الثلج وصل إلى ركبتيّ وكان من الصعب أن اسحب قدمي من حيث غرزتها....

لقد تبللت حتّى العظام، ولم أكن قادراً على رؤية الأشياء، وكما أعمي على بصري فكذلك أغشي على فكري! سقطت في الثلج وسلّمت أمري وروحي إلى ربّي وأنا أفكّر مرّة أخيرة بسيمونا!...

صمت إلياس لبرهة وكأنّه مازال تحت وقع ذكرى تلك الليلة الحزينة، ولربّما كان يقارنها مع الليلة الأشدّ حزناً التي كان فيها.

تابع! قالت سيمونا، ولم تكن لهجتها حادّة كما من قبل، ثبّتت عينيها على الأرض وبدأ تجهّمُ سحنتها يتلاشى بوضوح. لاحظ إلياس هذا فتنهّد أملاً وتابع:

- عندما استعدت وعيي كان النهار قد طلع. وجدت نفسي في سرير دافئ في صدر مطبخ كبير يوجد في وسطه مدفأة حجرية تتراقص فيها نيران تصلني حرارتها. عرفت من نوعيّة الأواني والأدوات التي كانت تزيّن المطبخ أنّي في بيت أناس أغنياء. كان هناك فتاة تحضّر الطعام قرب المدفأة عرفت من ثيابها أنّها من أهالي فونّي.

كنت في فونّي إذن!...من حملني إليها؟ من أنقذني؟ ...أيّ فرق بين وضعي قبل عشر ساعات والآن! بين سرير الثلج تحت السماء السوداء والضباب، والموت القريب، وبين السرير الدافئ الذي استيقظت فيه وكذلك الفتاة الجميلة التي كانت بقربي لتتأكّد على الأرجح أنّي عدت إلى الحياة!...

أجل، فتاة جميلة بالفعل! عندما انتبهتْ إليّ اقتربت منّي فنظرتُ إليها بدهشة وكنت أتساءل فيما إذا كان هذا حلماً أو رؤية. لم يسبق لي أن رأيتُ مثل جمالها، إلّا في صورة عذراء الحليب الحلو التي نراها خلال الأعياد.

كذلك عيناها السوداوان الكبيرتان، كذلك شعرها، كذلك بشرتها بلونها الزهريّ، والفم الصغير الدقيق، الأنف المستقيم، الرقبة الطويلة البيضاء الناصعة، كلّ شخصها، الخلاصة: كلّها...

كانت ترتدي تنّورة ضيّقة، تفصح عن وركين جميلين وتنتهي بقدمين صغيرتين داخل حذاء مزيّن بالشرائط، ومشدّاً أسود ومئزراً ينكشف عن قميص ناصع البياض تبدي ثناياه نهدها الطفوليّ، لأنّها كانت طفلة لاتتعدى الثامنة عشرة من العمر.

تابع إلياس حديثه بينما كانت عينا سيمونا تستعيدان بريقهما الكئيب السابق بعدما خمّنت أنّ هذه الطفلة من فونّي لابدّ أن تكون المرأة التي سرقت كلّ سعادة في حياتها: – لا أذكر كلّ هذه التفاصيل إلّا لأشرح السبب الرئيسيّ الذي كان على الأرجح وراء انحرافي.

– كنت أنظر إليها مسحوراً إذن، وبينما كانت تسويّ لي الأغطية على كتفيّ شعرت برعشة سرت في كلّ شخصي. أواه، أعترف، لقد

نسيت في تلك اللحظة كلّ عاصفة الليل وحصاني الذي نفق بين الثلوج والكستناء الضائعة وسبب وجودي في ذلك السرير...

- «كيف الحال؟...سألتني الطفلة وهي تفحص نبض معصمي. – منذ خمس ساعات وأنت تهذي! ما اسمك؟».

- «وأنت؟» سألتها بصوت أجش. «أين أنا؟...».

- «في بيتي! اسمي كوزيما ب... لقد وجَدَكَ خادمي عندما كان يعبرُ الجبل، كنتَ شبه ميّت فوق الثلج. أخذك على حصانه وجاء بك إلى هنا. إعلم أنّك في فونّي! انتعشتَ بعد علاجات طويلة في حوالي الساعة الخامسة من هذا الصباح، أصابتك بعدها الحمّى وبدأت بالهذيان، ولم أتمكّن من معرفة من تكون. خمّنت من ملابسك أنّك من قرية آ...لكنّي لاأعرف من أنت..».

حكيت لها قصّتي، ولم أخف عنها سبب رحلتي وعرسي القادم وزواجي بسيمونا.

- «لابدّ أنّك فقير جدّاً لأنّك كنت مضطرّاً لأن تتجشّم عناء رحلة مثل تلك الرحلة كي تتمكّن من شراء خواتم الزواج!...» قالت لي كوزيما وهي تحدّق فيّ بعينيها الواسعتين السوداوتين البرّاقتين.

- «لا، – أجبت، – لست فقيراً جدّاً! عندي بستان كستناء أكسب منه عشرين سكوداً كلّ شتاء، كما أنّ لي ساعدين قويّتين قادرتين على العمل! لكنّه من الضروري أن أذهب من حين لآخر إلى نوّرو كي أبيع منتجاتي. لديّ أيضاً عربة وثيران وحصان وبيت...لا، لست فقيراً، البتّة...كما أنّ سيمونا ستأتي بأشياء أخرى...».

طالت محادثتنا ساعة وتصارحنا كلّ المصارحة، بُحْنا بكلّ شيء كما لو أنّنا نعرف بعضنا منذ زمن طويل. قالت لي كوزيما بدورها إنّها يتيمة وغنيّة. مات وصيّها منذ شهور قليلة فأصبحت تدير أمورها بمفردها، ولديها الآن خادمة فضلاً عن خادمين أحدهما فلّاح والثاني راعي وهو الذي أنقذني.

كانت تملك البيت وبستاناً كبيراً جدّاً وحظيرة فيها قطيع كبير. عندما حاولت النهوض منعتني، وقالت إنّي مازلت مريضاً وإنّ الطبيب الذي استدعوه في الليل إلى جانب سريري طلب ألّا يتركوني أسافر ولا حتّى أن أنهض. فبقيت! جاءت بيبّا الخادمة وأعطتني طبق حساء وكرّرت على مسامعي كلّ ماقالته سيّدتها بما في ذلك أوامر الطبيب.

وفي الواقع فإنّ الزكام والحمّى لم يتأخرّا في الظهور، كانت حمّى شديدة جعلتني أتراقص في سريري ودوّختني فرأيت كلّ ماحولي كأنّه يدور في دوّامّة مسعورة. بقيت على هذه الحال لمدّة أسبوع، وكنت بين الحياة والموت. خلال ساعات الصحو كنت أرجو كوزيما أن ترسل إلى سيمونا بما يطمئنها عن سبب تأخّري، وكانت الفتاة توافق وتستحلفني بأن أطمئنَّ وأهدأ. أمّا في ساعات الألم وخلال نوبات التشنّج فكنت لا أفكّر إلّا بسيمونا، لكنّ عينيّ وفكري المضّطرب بالحمّى لايرون إلّا كوزيما، كوزيما الجميلة التي كانت تروح وتجيء عبر المطبخ على رؤوس اصابعها كي لاتزعجني والتي كثيراً ماكانت تنحني على سريري وتضع يدها البيضاء الطريّة على جبهتي. كانت تسهر ليالي طويلة عند وسادتي فتجذبني كالمغناطيس بعينيها، عينيّ الطفلة البريئة، وكان هذا عين الخطر.

أثار كلّ ذلك الإهتمام، كلّ تلك العناية، كلّ الرعاية التي أحاطتني بها رغم أنّها لاتكاد تعرفني أثارت في قرارة نفسي شعوراً بالعرفان، كما جعلتني أفكّر باللامبالاة الغريبة التي أظهرتها سيمونا. فهي لم تزوّدني بإشارة تطمئنّ بها نفسي وأنا أموت بعيداً عن بلدي، أموت بسببها وأنا أفكّر فيها! كان حقّا أيضاً أنّ بقيّة أقربائي لم يتّصلوا، لكنّي ماكنت أعبأ بهم أبداً...

بعد أسبوع بدأت أشعر بأنّي تحسّنت وقال لي الطبيب إنّي سأكون قادراً على العودة إلى قريتي بعد ثمانية أو تسعة أيّام أخرى. كنت أفكّر والألم يعتصرني بنتيجة رحلتي وبتأخّر عرسنا، خاصّة وأن الحصان وأحمال الكستناء اختفوا مع أنّ كوزيما أرسلت خادمها للبحث عنهم في الجبال. خلال ليلة عاصفة شبيهة بليلة ضياعي سمعت باب المطبخ ينفتح شيئاً ما فدخل شخص لم أميّزه للوهلة الأولى.

من الممكن أنّ الوقت كان منتصف الليل. كانت الرياح تعصف صاخبةً فوق السرير ليغطّي هديرها أصوات البشر. في موقد المدفأة كانت النار التي غطّاها الرماد تمِضُ من حين لآخر بلهبها المزرقّ فيُضاء المطبخ بعض الشيء. على ذلك الضوء الباهت تهيّا لي أنّي أرى شخص بيبّا تدخل وظننت أنّها أتت لتطمئنّ فيما إذا كنت نائماً وعلى مايرام. فتصنّعت بأنّي نائم لكنّي تركت لعينيّ شقّاً أرى من خلاله.

اقتربت الفتاة على رؤوس أصابعها من السرير وتوقّفت عنده وهي تطيل النظر إليّ بعينين تتلألأن في الظلام. غلبت عليّ رجفة واعترت كلّ جسمي...

لم تكن تلك بيبّا، لا، كانت كوزيما...

ماذا عساها تريد؟ لماذا كانت تنظر إليّ بتلك الطريقة؟ لماذا كنت أرتجف بكلّ تلك الرجفات تحت وقع نظراتها؟

انحنت بغتة عليّ وقبّلتني!...

كانت شفتاها ملتهبتين مثل الجمر فجفلتُ كما لو أنّ حديداً حارقاً مسّني. ظنّتْ بأنّها أيقظتني فتراجعتْ خطوة ثمّ ذهبت لتجلس قرب المدفأة. لكنّي لم أتحرّك وتابعتُ التصنّع بأنّي نائم. اطمأنّت كوزيما بهذا فبدأت تحرّك النار وحنت رأسها على ذراعيها الموضوعتين فوق ركبتيها. بدا لي أنّها تبكي...لاأعرف كيف أخبركم بالذي كان يدور في خلدي، لكنيّ نسيت وقتها وبكلّ تأكيد الحصان والكستناء والعرس. لقد ألهبت قبلة كوزيما وجهي فجالت في رأسي ألف خاطرة مضطربة.

كان حلماً إذن؟ ماذا كان هذا يعني؟ أنّ كوزيما قد عشقتني في أيّام قلائل، هي الجميلة كلّ هذا الجمال والصبيّة الغنيّة؟ أنا الغريب، المجهول، الذي كانت تعرف أنّه مخطوب لامرأة أخرى؟...

لم يكن بوسعي تصديق أحاسيسي، لكنّي كنت أرى الطفلة الحلوة هناك، في شبه ظلٍّ تبكي بصمت، فاضطرب ذهني وبالغريزة غلى الدم في عروقي. إلهي، ياإلهي، أيّ فتنة هي هذه الفتنة! لو قبّلتني كوزيما مرة أخرى لصرعتني رغم كلّ مقاصدي.

لكنّها انسحبت حتّى دون أن تنظر إليّ.

في الغداة رأيتها شاحبة اللون محمرّة العينين، لكنّي لم أقل لها شيئاً. بل إنّي ارتديت ملابسي خلال لحظةِ غيابها وجلست قرب

المدفأة وعندما دخلتْ قلت لها إنّي أريد أن أسافر.

- «معك حق – أجابت هي ببرودة. لقد أسأنا معاملتك كلّ الإساءة، ولابدّ أنّك تتوق لساعة رحيلك؟

- «العياذ بالله – صرخت أنا – لا بل إنّكم صنعتم من أجلي كلّ مالا أستحقّه! لقد أنقذتم حياتي وسأذكر هذا طيلة عمري. أريد أن أسافر كي لا أزعجكم بعد الآن. أواه ياكوازيما ماذا قلتِ! هل تظنّين أنّي حيوان؟ إنّني لاأعرف ماذا عليّ أن أفعل لأسدّد بعض الذي صنعتيه من أجلي. تكلّمي، قولي لي ماذا تطلبين وسأفعل أيّ شيء من أجلك..».

ماإن لفظتُ هذه الكلمات حتّى ندمتُ على ماقلتُ لأنّي رأيتُ في عينيّ كوزيما بريق الفرح. آي، لو طلبت منّي المستحيل ...أن أحبّها...

- «ابق إذن حتّى تشفى نهائيّاً» أجابتني. فبقيت. خاصّة وأنّي كنت أشعر أنّي غير قادر على الشروع بالرحلة، وأنّ الطقس كان سيّئاً بالفعل. لكنّي لم أكن أشعر بالاطمئنان بل كان هناك حدس في داخلي ينبؤني بأنّ الأمر سينتهي بي لأن أقع في الغواية الغامضة التي كانت لكوزيما عليّ. صارعت بكلّ قواي، لكّن خيال الفتاة، خيالها الواقعيّ، كان يطغى على افكاري وكانت ذكرى تلك القبلة تجعلني ارتعش بأكثر مما تفعل الحمّى.

- أمّا تفكيري بسيمونا فلم يُجْدني نفعاً، كما لم ينفع تفكيري بوضعها وبوعودي المقدّسة: وكلّما كبر حجم قراري كنت أرى كوزيما منتصبة أمامي جذّابة جميلة تسحرني بابتسامتها وبنظراتها المثبّتة

على نظراتي لتقول لي أشياء لاتقولها الكلمات. ياإلهي العظيم! أيّ تشنّج، أيّة غواية، أيّ حرب! كنت أبكي كالطفل، حاولت أكثر من مرّة، في عتمة الليل ووسط دويّ العواصف، أن أهرب من ذلك الجحيم وأنا أقول لنفسي إنّ الموت بين الجبال أهون من هذه العيشة. لماذا أنقذوني؟ لماذا؟...

كانت آلام نفسي تزيد من مرضي، كانت الحمّى تشتعل في دمائي وفي دماغي حتّى بدا لي أنّي أكره كوزيما بالرغم مما أدين لها به، كوزيما التي كانت تأتي كلّ ليلة لتعطيني قبلتها المعهودة، في الظلام. لايمكن لهذا أن يستمرّ. انتهى بي الأمر لأن أعتقد بأنّ هذا كلّه لم يكن إلّا حلماً، وعملاً من أعمال الشيطان، فحاولت أن أتأكد فحزمت أمري وقرّرت. وياليتني لم افعل!...

ذات ليلة، بينما كانت كوزيما تقبّلني، أمسكت بيديها وفتحت كلّ عينيّ لأحدّق فيها على الضوء الباهت المنبعث من نار المدفأة. لم تنبس ببنت شفة، لكنّها ارتجفت وهي تنتظر منّي أن أتكلّم!

- «كوزيما...ماذا يعني هذا؟...» سألتها بحزم.

تركت نفسها تقع على ركبتيها وخبّأت وجهها بين يديها وتمتمت: «اغفر لي! إنّي أحبّك حتّى الموت!..».

بدأت أنا أيضاً أرتجف، لكنّي تشجّعت وصحت:

- «ماذا تقولين؟ ألاتعلمين أنّي متزوّج؟...».

- «هذا ليس صحيحاً! أعرف كلّ شيء...أعرف أنّك خاطب، وأعرف الحال الذي فيه سيمونا...لكنّي أعرف أيضاً أنّ الجميع في القرية

يقولون إنّك لست الأب الوحيد لـ...».

- «كوزيما! – صرختُ وقد خرجت عن طوري. – لا تفتري على أحد! قولي لي إنّك تحبّينني، إنّك تريدينني، لكن لاتفتري..».
- «إنّي أتكلّم بما سمعتُ. لكن لا تصرخ بهذه الطريقة! يمكن أن تستيقظ بيبّا وترى كلّ شيء...لا تضيّعني لأنّي أحبّك!...».

كانت تبتهل بخشوع ممّا جعلني أخفض صوتي كي اسألها وأنا أرتجف معنى كلماتها الفظيعة. فحكت لي ألف قصّة لا أذكرها كلّها لأنّي لم أكن أصغي كما يجب رغم أنّ أمراً أكيداً كان يبرز بينها. أنّي كنت محصوراً في وضع شائن وأنّ سيمونا لا تحبّني، بل كانت تتصنّع لتغطّي ذنباً لم أرتكبه لوحدي..أوّاه، يا للرعب، يا للرعب!

- أيّ بؤس!... قالت سيمونا مقاطعة إلياس وقد ازرقّ وجهها وهي تلوّح بذراعيها. لكنّ أخاها تانوو كان يفكّر بشكل مختلف وهو يستمع إلى إلياس وعلى وجهه ابتسامة لاذعة من التشكيك، ظنّاً منه أنّ الحكاية كلّها كانت محض خرافة، لذلك فقد هدّا أخته بصعوبة وقال ساخراً:
- تابع وأوجز...
- سأوجز. وعدتني كوزيما بتقديم البراهين، ثم ارتمت بغتة لتبكي بقنوط وتجهش في البكاء.
- «حسناً، – سألتُها بدهشة، والآن لماذا البكاء.؟..».

والواقع أنّي لم أتمكّن أنا أيضاً من كبح نفسي، وكأنّ عقدة كانت تسدّ حنجرتي. صدّقت ولم أصدّق ماقالته لي كوزيما، حتّى

إنّي شعرت برغبة جامحة بلطم وجهها وبرغبة جامحة أخرى بتقبيلها وبإخبارها: «إنّني أحبّك وأحتقر سيمونا!..» .

- «سامحني...سامحني... كرّرتْ بصوت خنقه البكاء. - أعرف أنّك لا تستطيع أن تحبّني...أنّك تحبّ تلك...سامحني لأنّي لم أتمكّن من المقاومة...لكنّني أحبّك حبّاً جمّاً...لكنّني أشعر بأنّي سأموت...لكنّني إن لم ترفق بي فإنّ أمراً جللاً سيحدث..».

- «كوزيما، كوزيما، قلت لها، - كيف لك أن تحبّيني؟ إنّي فقير، ولن يقبل بي أقرباؤك حتّى لو أحببتك!».

- «ليس لي اقارب! وأنا سيّدة نفسي وأفعل مايعجبني فعله. لكنّك أنت لا تستطيع، لا تريد أن تحبّني، إنّك تحبّ تلك...- وكانت تلفظ كلمة «تلك» بازدراء- إنّك ستجعلني أموت...».

- «أوّاه يا إلياس، لو تعرف كم أعاني! لقد أحببتك منذ رأيتك أوّل مرّة وأدركت في الحال أنّ دخولك إلى بيتي سيجيئني بالموت! إنّي لا أطلب منك شيئاً، لا شيء أبداً. إذا كنت تريد أن تذهب فاذهب، لكن تذكّرني...اعمل حسابك بأنّك لم تسمع من شفتيّ شيئاً وتزوّج سيمونا، ولكن عندما ستجد نفسك تعيساً فتذكّر أنّي أكثر منك تعاسة...».

هكذا تكلّمت كوزيما لساعة من الزمان وهي منحنية عليّ تحرق وجهي بنَفَسها الملتهب وتبلّل يديّ بدموعها. لم أدري بأيّ وضع أنا فكنت أعضّ على شفتيّ وأكبح دموعي بصعوبة كما أكبح الشتائم التي كانت تخرج في نفس الوقت من قلبي وتقفز إلى فمي.

خمدت النيران وبقينا في الظلام.

- «وداعاً، وداعاً! قالت كوزيما. - سأذهب الآن. ستسافر غداً ولن نرى بعضنا ثانيةً. اذكرني، إلياس، تذكّر. وداعاً، وداعاً..اذهب كما تشاء، فأنا لن أطلب منك شيئاً!...».

لم تطلب منّي شيئاً لكنّها كانت تغطّي وجهي بالقبل والدموع، بدموع بدت كأنّها رصاص سائل، قبل طويلة، محمومة، أحرقت شفتيّ وعينيّ وخدّيّ وقضت على ماتبقّى في رأسي من عقل.

- «كوزيما، - قلت لها بصوت أجشّ وأنا أضمّ رأسها بين يديّ وأبادلها القبل، - أحبّك وسأبقى!».

بعد يومين، - ختم إلياس حديثه، - جاء خوريّ إلى بيت كوزيما وزوّجنا بالسرّ. كانت الحمّى تشتعل في جسمي وكنت أتصرّف بطريقة آليّة كأنّي لاأدرك شيئاً ممّا يجري.

طُبعتْ الدعوات في نفس اليوم وبعد ثلاثة أسابيع ارتبطتُ للأبد بزواج قانونّي مع كوزيما. بعد أن خمد لهب الشرارات الأولى عدت إلى رشدي وأدركت فعلتي واقتنعت بأنّ ما أشيع بحقّ سيمونا كان زائفاً، لكنّ الوقت قد فات!

- ومن يضمن لنا أنّ كلّ هذه القصّة ليست إلّا خرافة؟...صاح تانو بصوت فظيع.

أطرق إلياس برأسه ومات الأمل في عينيه. لم تثر كلماته أحداً ورأى في وجوه قضاته الحكمَ بإدانته فشعر بعذاب لايطيقه بشر، كالذي يعاني منه إنسان في مقتبل العمر حُكم عليه بالإعدام، لكنّه

أخفى مشاعره لكي لا يظهر بمظهر الجبناء.

– هذا صحيح! قال. – لاأحد بوسعه أن يدافع عنّي....

توجّه بنظرة إلى سيمونا، لكنّ نظرات الصبيّة كانت بعيدةً عن نظراته، ثمّ حتّى لو؟ حتّى لو أرادت فهي لن تتمكّن من إنقاذه.

– ستموت! قال الأب بصوت داكن وهو ينطق بالحكم.

ساد صمت طويل. لقد تقرّر مصير إلياس، يجب ألّا يخرج من هذا البيت المحتوم عليه حيث تسنّى له أن يقضي قبل عشر سنين ساعات كثيرة سعيدة. وقصّة كوزيما لم تغيّر على الإطلاق النوايا القاسية التي نوتها عائلةٌ دنّس شرفها، وكانت البندقيّة تلمع بين يديّ بيترو الذي يعتبر نفسه السبب الأوّل في مصيبة أخته.

ثمّ إنّها أصبحت الآن قضيّة حياة أو موت. فإذا عفوا عن إلياس فإنّهم لابدّ أن يتعرّضوا لانتقامه عن هذه الليلة الفظيعة، وكان هو غنيّاً قادراً. لذلك كان لابدّ أن يموت.

لم تخامر رعشة خوف أو تردّد تلك العيون التي حجّرتها حياة الحرمان القاسية والتي تؤمن بالانتقام وبالحقد ديناً لله.

ذات ليلة أقسموا حول نفس ذاك الموقد، وحول ذات تلك النار التي لم تكن تنطفئ بأن يغسلوا بالدم الدنس الملّوث. وها قد حان أخيراً الوقت المرسوم بعد انتظار طال شهوراً وسنين.

كانوا متحلّقين في سكون يشبه خشوع التقوى وكانوا في صدد قتل الرجل وهم على ثقة بأنّهم يقومون مرفوعي الجبين بواجبٍ قد ينتقصوا منه إذا ماهم صفحوا عنه. ذلك أمام إلهٍ يجهلون تعاليمه

ويفترضون أنّه متجبّر قاسٍ مثلهم....

- اخرجي!... أمر بيترو سيمونا.

- لا، سأبقى حتّى النهاية!..أجابت الصبيّة بصوت جازم أجفل إلياس وأفزعه.

رفع بيترو البندقيّة...

كانت الرياح والأمطار والرعد تعصف جميعها في الخارج وتزأر، بدت صيحات بشر تزعق عبر الجبال، أو غضب عادل أنزله الله بسبب جريمة ترتكب في ذلك البيت الأسود الذي يسكنه شياطين في ثياب البشر.

صوّب بيتروعلى إلياس، لكن بينما كان في صدد الضغط على الزناد سُمعت ضربة لم تكن حتماً ضربة ريح تقرع على الباب المسدود الذي يؤدّي إلى الفناء، فوقعت البندقيّة في حضن بيترو.

من هو الطارق؟ هل تمّ اكتشافهم إذن؟ هل ضاعوا؟...

لكنّ سيمونا نهضت بسرعة وانطلقت وهي تصرخ صرخة رعب - غابينا! غابينا!...

اندفعت نحو الباب وهي تقفز قفزاً وترتجف كأنّها ضبعة جريحة، وفتحت الباب...

وبالفعل فقد وجدت الصغيرة، كانت ممدّدة على الأرض، مبلّلة غائبة عن الوعي. لقد سمعت غابينا ورأت كلّ شيء فلم تتمكّن من مجابهة ماسمعت ومارأت فأغمي عليها من شدّة الرعب والفزع....

- بنيّتي!...غابينا، غابينتي الغالية، بنيّتي!...- صاحت سيمونا وهي تضمّها بين ذراعيها بعدما أخذتها نحو الموقد. لمرآها على هذه الحال، زرقاء، باردة، مبلّلة، مغمضة العينين، والرعب مازال مرسوماً على وجهها، حسبتها سيمونا قد ماتت فنسيت تماماً إلياس الذي كان يلتهم الطفلة بنظراته ويبكي متشنّجاً في البكاء، وتابعت الأمّ تنادي ابنتها بأحلى الأسماء وهي تخلع عنها ملابسها المبلّلة وتدفّئ لها قدميها الصغيرتين المعقورتين وتقبّلها قبلات محمومة.

لكنّ غابينا لم تبد حراكاً ولاحياة.

غابينتي... حبيبتي غابينتي الصغيرة... ابنتي...قلبي..قلبي الغالي! أواه! لقد ماتت.. ماتت...ابنتي المعبودة، ماتت فرحة عمري الوحيدة!... حياتي، غابينا، يامسكينة، يامسكينة.. ماذا أصنع الآن... إلهي، يا إلهي ماذا أصنع..لقد ماتت...انظر...يا ابي... المسها، لقد ماتت...إنّها باردة، لقد ماتت، يا إلهي!...

كانت سيمونا تحرّك أطرافها وتومئ وتهذي كالمجانين، وكانت تتكلّم حيناً لتعود وتبتسم حيناً آخر عندما تحسب أنّ غابينا قد عادت لرشدها ثمّ تعود لتبكي بكاء الجنون.

هذا بينما كان بيترو وتانو يتبادلان النظرات وقد أساءهما الاضطراب الذي وقعا فيه. فلابدّ أنّ الصغيرة قد أدركت ورأت كل شيء. إذن؟ ...

أمّا إلياس فقد واصل النظر إلى الطفلة، وهو متجهّم يائس.

- أوّاه، هل ماتت، هل ماتت حقّاً.

أمّا الخال توتّوي فقد تطيّر وارتسمت على وجهه ابتسامة مرّة عندما فكّر بأنّ يد الله كانت وراء هذه الواقعة وأنّها تعاقبهم، أو تنذرهم على أقلّ تقدير. كان النور يغمر قلب العجوز وأفكار كبيرة تلتمع في ذهنه. أخذ غابينا من حضن سيمونا ووضعها بين ذراعي تانو وهو يقول له:

- اصعد بها إلى الأعلى، ضعها في سريرها...واجر أنت يابيترو لتحضر الطبيب...

- أبي؟! صاحت الصبيّة وقد وسعّت حدقتيها وهي تشير إلى إلياس بينما أطاع تانو وخرج بغابينا على ذراعيه تتبعهما سيمونا بالمصباح.

- اذهبي! أجاب العجوز. - أقول لك أن أذهبي. لن يحدث أمر سيء!...

كان بيترو يثق بأبيه ويعبد ابنة اخته التي ظنّ أنّها ماتت أو أنّها في نهاية حياتها، فأراح البندقيّة وخرج!...

بعد دقيقة اقترب الخال توتّوي من الباب ونادى:

- سيمونا، سيمونا، انزلي..فنزلت الصبيّة في الحال.

- سيمونا - تمتم الأب بصوت غامض مهيب. - لقد رأت غابينا كلّ شيء. إنّها يد الله يا سيمونا....

فهمت الصبيّة فتجمّدت وصمتت، وثبّتت عينيها على إلياس، عيناها الكبيرتان اللتان يوحي بريقهما القاتم بالمعركة التي تدور رحاها

في نفسها. – إنّها يد الله!...كرّر العجوز.

اندفعت سيمونا بغتة نحو إلياس وحلّت وثاقه، ومإن تحرّر حتّى قادته من يده نحو الفناء وفتحت له الباب القديم ودفعته نحو الشارع وهي تقول له:

– ابتعد وتذكّر ابنتك!...وبقيتْ هناك حتّى تلاشى وقع خطاه في البعاد وسط زعيق العاصفة.

الساحر

كانوا يعيشون على أطراف القرية. كانت قرية من أروع وأجمل قرى جبال لوغودورو، بل إنّ بيتهم الأسود الصغير كان آخر بيت فيها، يطلّ على المنحدرات المغطّاة ببقع واسعة من نباتات المكانس والمصطكي.

كانت سافيريا تستطيع أن ترى البحر من حيث هي واقفة على الباب، كانت تراه بعيداً في منتهى الأفق يختلط بسماء بلاتينيّة في الصيف وضبابيّة في الشتاء. وعندما تطبخ قرب النافذة كانت ترى وديااً فسيحة تمتدّ في أسفل الجبال، وتشعر بدفء العطر المنبعث عن محاصيل الذهب المتمايلة تحت الشمس، وتسمع خرير الجداول التي تجري بين الصخور وأشواك الجبل. كانت سافيريا تقضي منذ سنتين أسعد حياة يمكن تخيّلها في ذلك البيت الأسود الصغير ذي السقف المغطى بالطحالب الصفراء المحمرّة، القائم تحت ظلّ عريشة قديمة، تعلوه بهجة تلك المقاطع من زرقة من السماء والآفاق الواسعة الساكنة. كانت هناك، في ذلك البيت إلى جانب زوجها الشاب ذي العينين الكبيرتين البرّاقتين والشفتين الحمراوين كثمار الخلنج الحمراء حيث يرعى قطيعه الذي كان ثروته الوحيدة. كان اسمه أنطونيو. كان هو أيضا يعيش بمنتهى السعادة منذ أن تزوّج السيدة الصغيرة التي ملأت أحلام الراعي ورأسه: غير أنّ غيمة صغيرة ظهرت بعد عامين من السعادة الكاملة في سماء وجوده الصافية. ذلك أنّ سافيريا لم

تجعله ولا يبدو أنّها ستجعله أباً! كان هذا أمراً تعيساً محزناً! كان يحلم دائماً بطفل صغير أسمر البشرة مثله ما إن يعرف كيف يمشي حتّى يلحق به صعوداً وهبوطاً بين الأحراش والوديان ويساعده في أشغال الراعي المتعبة. طفل ما إن يكبر ويشتدّ ساعده ويتزوّج حتّى يحقّق سعادة آبائه بتوريث أسمائهم وإرث قطعانهم إلى شخص آخر، وهكذا عبر القرون! كان كلّ أجداد أنطونيو رعاة، وكان يحلم بمواصلة هذا المجد ولكن كيف يفعل والوريث لا يجيئ؟

فعل كلّ ما يجب عليه أن يفعله: من نذور وصلوات وحجّ. بل إنّ أنطونيو ذهب مرّة ومشى حافي القدمين حاسر الرأس إلى أن بلغ معبد عذراء المعجزات الشهير في منطقة بيتّي وهناك سيّر موكباً وأقام قداديس مهيبة ونذر بأن يقدّم آواقاً من الشمع المشغول إلى العذراء وذلك بزِنةِ ابنه ساعة ولادته. لكنّ هذا كلّه لم ينفع في شيىء. أمّا سافيريا فبقيت نحيفة، نحيفة، لكن أنيقة بثوبها ذي النطاق الأصفر والقميص المزركش. غير أنّ البيت لم يسعد بعد بصراخ طفل الأحلام ولا بترانيم الأمّ المصحوبة بصرير المهد.

كانت حزينة بالفعل، وأيّ حزن! كانت قد تخلّت عن أملها الأخير عندما جاءت ذات يوم إحدى صديقات سافيريا لزيارتها وقالت لها بغموض عميق بعد عبارات المجاملة على الطريقة الفرنسيّة: إنّك لا تعرفين سابي إذن يا صديقتي؟ قال لي بيبّى لونغو أنّك لا تنجبين بسبب...

- لماذا؟...سألتها سافيريا بانتباه وعينين جاحظتين.

- لماذا؟ تابعت الأخرى بصوت خافت – الله يجيرنا، لكنّك تعرفين،

إنّ بيبّى ساحر من الدرجة الأولى، هذا ما يقوله الجميع على الأقل...وقال لي هو بالذات إنّك لن تنجبي أولاداً بسبب سحرٍ سحرَك به.

- نجّانا الله! صاحت سافيريا وهي ترسم إشارة الصليب وتضحك.

كانت تتطيّر مثل جميع نسوة القرية وتعتقد بالخرافات والسحر، لا بل إنّها رأت مرّة بأمّ عينيها شبحاً أبيض يجوب بين الجبال، أمّا أن يصل بيبّى لونغو إلى ذلك الحدّ مع أنّه ساحرٌ، آه، هذا كثير! لكنّ الأخرى تابعت حديثها وقد أهانها تكذيب سافيريا، فقالت الكثير، ثمّ قالت الأكثر حتّى تمكّنت من إقناعها.

بعد ساعة من الثرثرة أمام الموقد الذي وضعت سافيريا على جمره القهوة، أصبحت مقتنعة بسحر بيبّى إلى درجة أنّها تأمّلت وسألت صديقتها:

- و..أخبريني، ألا يستطيع أن يفكّ هذا العمل الجهنّمي؟

- أمّا هذا فلا، قال لي، هذا لا! يبدو أنّ النتيجة ستنعكس على زوجك!..

عند حلول المساء ظهر أنطونيو في آخر الشارع الوعر وهو على حصانه الأسود وجرابه مليئ بالجبن الطازج والقريش. أخبرته سافيريا بكلّ أمر عندما كان يُنزّل حمولته تحت العريشة: لم يضحك البتّة بل اكتفى بتقطيب حاجبيه الكثيفين وهزّ رأسه. رتّب انطونيو كلّ شيء يتعلّق بالحصان والجراب والحمولة، ثمّ تربّع مصالباً قدميه أمام الموقد وطلب منها أن تعيد رواية هذه القصّة الجديدة الغريبة.

- لكن أيّ شيطان نزغ بينك وبين بيبّى؟ لماذا ينتقم منك بهذه الطريقة البشعة؟ سألته سافيريا في نهاية القصّة بجديّة واضحة.
- لا شيء!...أجاب أنطونيو، هذا إذا لم يكن لأنّي أسخر دائماً من سحره!
- هذا سيئ! ألم تر كيف أبعد الجراد الذي خرّب كرم دون جوفانّي؟ وقصص يولجي لوبيّدو؟...
- صحيح..صحيح...لكن! سنرى! سأكلّمه في الغد.
- آه، لو أنّه يفكّ هذا السحر! هتفت سافيريا.

في تلك الليلة حلم العروسان من جديد بطفل جميل أسمر، لكنّ ساحر القرية رفض رفضاً قاطعاً في الغداة أن يفكّ ذلك السحر وذلك رغم إلحاح أنطونيو في رجائه.

كان لذلك الساحر شخصية غريبة: كان يعيش مثل كلّ الرجال في هذا العالم لكنّه لم يكن يقوم بأيّ عمل.

كان يقوم بالطبع بأعمال سحر ظاهرة عامّة وكان يتباهى بها ذلك كما حدث عندما قضى على أسراب الجراد وشفى الأغنام المريضة بأبسط الكلمات الغامضة، لكنّه لم يكن يقبل بأيّة مكافأة ماليّة لقاء هذه الأعمال، مع أنّه كان يستقبل كثيراً من الزيارات الليليّة، لكنّ أحداً لم يكن يبالي بهذا بل كان الجميع يعتقدون أنّ الجنّ الذين كانوا تحت إمرته هم الذين يعطونه النقود والمؤن الوفيرة التي كان يدّخرها في كوخه. غير أنّ ظنّ أنطونيو كان مختلفاً، لذلك وبعد فشل كلّ محاولات الرجاء بل والتهديد فإنّه توجّه إلى بيبّى ذات ليلة ووعده

بليرة لويس الذهبيّة إن هو فكّ ذلك السحر القاتل.

تصنّع بيبّى في البداية الطرَشَ بل أظهر أنّه صُدِم من العرض وكأنّه فنّان تلقّى عرضاً بصفقة تسيئ إلى قيمِهِ ومُثلِه العليا، لكنّه عندما رأى بريق ليرة لويس على أرض الواقع، ومن يدري كيف حصل الراعي عليها، لم يجد مناصاً من أن يتنازل شيئاً فشيئاً، حتّى إنّه هتف:

– حسناً، لا بأس! سأفعل هذا صداقةً لسافيريا وشفقة عليها أما أنت فلا تستحق هذا، أنت الذي كنت ً تسخر دائما منّي!..

بعدما احتجّ أنطونيو طلب منه بيبّى أن يذهب في ليلة الغد إلى مكان مقفر بين الجبال وهو يحمل بندقية بلا ذخيرة، فضلاً عن مفرش مائدة أبيض وشمعتين. أعطى أنطونيو العملة للساحر ووعده بالتنفيذ، لكنّه ما إن خرج إلى الطريق المعتم حتّى هدّد بقبضته باتّجاه البيت الخرِب الذي خرج منه وقال: – سنرى!

في ليلة الغد كان الراعي أول من وصل إلى الموعد: كان الموقِعُ مرعباً ووعراً لكنّه بدا رائعاً تحت ضوء القمر الشاحب ساعة غروبه. لم تكن تتحرّك نسمة ريح في صفاء تلك الليلة، لكنّ زهور الشوك والطحالب وبعض الأعشاب السوداء كانت تتمايل وسط الصمت الغامض المهيب الذي يسود فوق الصخور اللامعة تحت ضوء القمر.

وضع الراعي بندقيّته التي لم يعمّرها بحسب توصيات الساحر، كما وضع المفرش والشموع فوق صخرة وانتظر...لم يتأخّر بيبّى. كانت أولى كلماته: – حانت الساعة! إنّه منتصف الليل. ثمّ مدّ المفرش على حجر أقرع عريض معزول عن بقيّة الأحجار، وغرز الشموع في الأرض، كما بطح الراعي على وجهه لثانية من الزمان. عندما

نهض أنطونيو رأى الشموع موقدة والبندقيّة موضوعة على المفرش.
– فلنبدأ! قال بيبّى.

بدأ بالفعل وقام بحركات وإيماءات كان أنطونيو يتابعها بعين الريبة وبابتسامة سخرية ارتسمت على شفتيه. شعر أكثر من ايّ وقت مضى بالرغبة في الهزء من الساحر، لكنّ الفزع خيّم على قلبه عندما التفت بيبّى نحو الحجر المغطّى بالمفرش وسأله بلغة غريبة لابدّ أنّها تشبه اللاتينيّة فأجابه الحجر بصوت كئيب حزين عميق كأنّه يخرج من تحت الأرض وبلغة لربّما شبيهة بتلك اللغة؟ ...في نفس الوقت انطفأت الشموع دون أن تهب نسمة ريح ودون أن ينحني بيبّى فوقها. التفت هذا نحو الراعي الذي كانت ترتجف عظامه عظمة عظمة وقال له: – لقد أجابني الحجر أنّ...البندقيّة هي التي ستجيب فيما إذا كان السحر قد انفكّ أو لا!...

– وكيف؟ سأل أنطونيو بعد أن أعاده صوت الساحر إلى رشده.

– هل كانت بندقيّتك فارغة بلا ذخيرة؟...

– بالله! طبعاً – هتف الراعي.

– حسناً، تناولها وأطلق النهار في الهواء: إذا أطلقت ناراً فهذه إشارة على أنّ السحر قد انفكّ!

كان أنطونيو قد تهيّأ لمشاهدة كلّ عجائب الدنيا لكنّه لم يكن يتوقّع سماع مثل هذه الإفادة. دنا من الحجر الناطق وأخذ البندقيّة وضغط على الزناد...عندها وقع بيبّى على الأرض، دون أن تصدر عنه آهة واحدة. لقد مخرت الطلقةُ عباب قلبه.

ذلك أنّ أنطونيو استهدفه بدل أن يطلق النار في الهواء...

بعد هذه الجريمة العفويّة اللاإرادية، لأنّه كان على قناعة تامّة أنّه لا يمكن للبندقيّة أن تطلق ناراً، فكّر الراعي في البداية بأن يطلق العنان لقدميه، لكنّه تذكّر أنّ أحداً لا يعرف شيئاً عن كلّ الحادثة،...وهكذا طوى المفرش وأخذ الشموع والبندقيّة وعاد إلى القرية وهو يسير على جروف الصخر كي لا يترك أثراً وراءه، ثمّ قضى بقيّة ليلته بهدوء مع حبيبته سافيريا.

.... بقي على تكذيبه لأمور السحر، لكنّ هذا الراعي القويّ ذا العينين الكبيرتين البرّاقتين لم يتمكّن من تفسير كيف كان للحجر أن ينطق، وللشموع أن تنطفئ وللبندقيّة أن تطلق النار، ومع هذا فقد شعر بالسعادة تغمر قلبه بعد تسعة أشهرعندما أصبح أباً وحمل على ذراعيه القويّتين طفله الجميل الذي ولدته سافيريا. ندم عندها أشدّ الندم لأنّه لم يطلق النار في الهواء، وبما أنّه لم يتمكنّ من إحياء الساحر، فقد اكتفى بإقامة الصلوات على روحه في كنيسة الجبل الصغيرة القديمة.

السحر من جديد

بدأ عاملنا القديم العمّ سالفاتورِه بالقول:

أنا لم أكن يا أولادي في البداية فلّاحاً: فقد ولدت لأكون شيئاً ما عظيماً، قسّاً على أقلّ تقدير، لكنّ الصدف وفقر أمّي الطيّبة الشديد لم يسمحا بهذا. ومع ذلك فقد عملت شمّاساً في كنيستنا الصغيرة المسمّاة كنيسة سان جوليانو، بعد ذلك ذهبت عنّي كلّ ميولي الدينيّة وفكّرت بالزواج. طرحت عنّي عطور البخّور والشموع التي كانت تفوح من ثيابي وارتديت ملابس الفلّاحين وبدأت أشتغل بالأرض. اسمعوني إذن: كانت آخر سنة في عملي كشمّاس عنما بلغت الثانية والعشرين من عمري.

عند حلول الظلام في مساء يوم من أيّام تشرين الأوّل كنت جالساً على عربة أحد الجيران خارج بيتنا أتأملّ آخر الطريق. بما أنّ البرد كان قارساً فإنّ أحداً لم يتواضع ليرافقني، بل إنّني ماكنت أنا بالذات لأجلس هذه الجلسة لولا أنّي كنت مدفوعاً بسبب قاهر. شاهدت الجبال وقد علتها الثلوج وغطّاها الضباب، وشعرت أنّ رطوبة ثلجيّة تهبط من السماء لتتغلغل في معطفي، وكانت الرياح الباردة تجعل أنفي قرمزيّ اللون، ومع هذا فقد ثبتّ في مكاني. كان ناقوس سان جوليانو الأسود يتأرجح بين وقت وآخر بين الضباب وألوان الغروب الشاحبة ليعلمني أنّه حان وقت ذهابي لأعزف الأناشيد الدينيّة، ومع هذا فقد بقيت هناك كالمحنّطين، مثابراً على عنادي، متناسياً واجباتي. كانت تسلّيني أكثر ما تسلّيني زغردة

النار المرحة داخل طبّاخ البيت الحارّ التي كانت أمّي تحضّر عليه حساء لذيذاً من الفاصولياء مع القرنبيط، وجبة لابدّ أنّها فاخرة، هذا بينما كانت من حين لآخر تحرّض بصوتها المرتعش البغل الذي ما فتأ يقوم بواجبه الرتيب البطيئ ويدور بالطاحون في زاوية المطبخ. كنت أنظر بين الفترة والأخرى إلى السقف المنخفض والرطب بالدخان الذي يصدر عنه، وكانت فكرة النار الدافئة تزيد من شعوري بالبرد، ومع هذا فلم أكن أتحرّك وكأنّي مجمّد مسحور. ذلك أنّ غراتسياروزا خرجت قبل ساعة من صلاة التسابيح وقالت لي بلهجة غامضة:

«أيّها الرفيق باتُو، يجب أن أكلّمك، انتظرني بعد ساعة أمام بيتكم». هل ستكلّمني غراتسياروزا بالذات وتلتقي بي! كان أمراً لم أكن أستطيع حتّى أن أحلم به، لأنّه يجب أن تعلموا أنّي تولّهت بها لحدّ الجنون لكنّها لم تكن تقبل أن تستمع لي، بل كانت تسخر منّي وتدعوني بالرفيق برج الناقوس! كم كنت أتألّم حينها يا إلهي العظيم! كانت غراتسياروزا تظنّ نفسها فتاة عظيمة لأنّها كانت تعمل في بيت العمدة، أي أغنى رجل في البلدة، وكانت ترافق السيّدة دانيلا خلال نزهاتها وجولاتها، كانت فتاة جميلة، غراتسياروزا، بعينين خضراوين، وكنت مجنوناً بها، لكنّها لم تكن تعيرني التفاتة أو نظرة، بل كانت تطمح لأن تتزوّج بواحد من السادة! تصوّروا أيّ سيّد! سيّد يرتدي البنطال، وهكذا فقد استأت عندما عرفت بالأمر حتّى أنّي غنّيت لها أغنية شائنة تحت نافذتها.

هدّدتني عندها بأن يضربني أخوها، وكنت أستعدّ لأن أستكتب قصيدة فاضحة يؤلّفها شاعر اعتاد أن يكتب لهذا وذاك مثل هذه الأغاني لقاء دراهم معدودة، لكنّها منحتني بلطف ذلك اللقاء ونادتني

على غير عادتها باسمي الحقيقيّ.

يمكنكم أن تتصوّروا أنّ هذا كان هو السبب الذي دفعني أنا الذي أحبّها لأن أثبت في مكاني وأقف تلك الليلة في البرد الشديد محمرّ الأنف أبتلع الضباب....

وصلت كما شاء الله غراتسياروزا: كانت عائدة من العين وكانت تلفّ يديها في مئزرها وكان وجهها أزرق من شدّة البرد. ما إن رأيتها حتّى قفزت ونهضت وذهبت لملاقاتها وأنا أرتجف وأتمتم:

«بحقّ الشيطان! منذ ساعتين وأنا بانتظارك، هل تعرفين. كان عليّ أن أذهب لأعزف النشيد الدينيّ!».

علت ابتسامة ساخرة طرف شفتيها: وضعت الجرّة على طرف الجدار وأجابتني وهي تنظر حولها: «أيّ أناشيد وأناشيد يا رفيقي! نحن نتكلّم عن نقود حقيقيّة، هل تريد أن تكسب عشرين منها؟..».

نظرتُ إليها بثبات وفكّرت: «إلى أين تريد أن تصل؟». نظرت حولي أنا الآخر بعد أن تذكّرتُ تهديدها وراودني شكّ أنّ أخيها قد يكون وراء الجدار، لكنّي لم أر أحداً. لم يكن هناك إلّا بيتي الأسود على بعد عشرين خطوة يلوح بين الضباب وصوت الطاحونة الخافت التي يديرها البغل، انتبهت غراتسياروزا إلى... وكنت سأقول خوفي.

«هيّا – قالت وهي تنقلب جادّة – لا تتصرّف كالمجانين. ليس عندي وقت أضيّعه. أخبرني إذا كنت تريد أن تكسب عشرين درهماً..».

عندما تأكّدتُ أنّها تتكلّم جادّة وبما أنّني يمكن أن أظهر رومانسيّاً دون مجابهة أيّ خطر فقد بدأت بتعسيل عينيّ كالولهان وأجبت: «إذا

كنت أيّتها الرفيقة غراتسيارُوْ تقولين الحقيقة، وإذا كان عليّ أن أصنع معك معروفاً فأرجو أن تتكلّمي في الحال...أنت تعرفين مسبقاً أنّني على استعداد لأن ألقي بنفسي في النار من أجلك، على أن تمنحيني بعض الحبّ ولا شيء غير ذلك، وسأذهب وقتها إلى الجحيم...».

«أوف! هتفت الفتاة وهي تحدّق بي – لست إلّا ثرثاراً أحمق! إنّك لن تذهب إلى الجحيم بل وأراهن أنّك لن تفعل لي معروفاً أطلبه، وهو يخصّ آخرين،..سنربح مئة ليرة أنا ومئة أخرى أنت، هذا إذا لم نحسب المحبّة التي سأكنّها لك من الآن فصاعداً...».

أشعلت هذه الكلمات كثيراً من الحماسة في قلبي، حتّى أنّي لم أجد كلمات أستطيع أن اشكرها بها فتجرّأت ومددت يدي لألاطفها ظنّا منّي أنّ لي الآن شيئاً من الحقّ عليها . أمّا هي فقد تراجعت في الحال وهي تصرخ في وجهي: «اخفض يديك يارفيق، وإلّا فإنّي سأصفعك...واضح!».

كانت مقدّمة سيّئة لحبّها الموعود! بدأ الليل يخيّم وعويل الرياح يشتدّ بين الضباب، لذلك فقد تابعت غراتسياروزا قائلة:

«من المؤكّد أن تطردني السيّدة مساء هذا اليوم...إنّها امرأة، هل تفهم، هل تسامحني! علينا إذن أن نسرع. لكنّه عليك أن تقسم لي قبل أن أخبرك عن الموضوع أنّك، سواء قبلت أم لم تقبل، لن تبوح بشيء أبداً وأنّك لن تفشي اسمي إذ حدث وأن تكلّمتَ بالأمر!». وبما أنّني أعرف طبعي وأعلم أنّي سأفعل العكس تماماً، فقد أقسمت لها بأشدّ الأيمان رهبة. عندها أعلمتني غراتسياروزا بصوت مخنوق عن الذي تريده: كان أمراً رهيباً مرّوعاً بالنسبة لي، يتعلّق بإعطائها لا أكثر

ولا أقلّ بعضاً من الزيت المقدّس، وذلك مقابل مئة ليرة من العطيّة المذكورة ومقابل حبّها الموعود!

امتقع لوني وشحب وجهي عندما فكّرت كيف أنّهم يظنّونني قادراً على ارتكاب مثل هذه الفعلة الشنيعة: ثمّ ارتجفتْ كلّ أعضائي عندما علمتُ أنّ الزيت المقدّس سيُستعمل في عمل سحريّ، لكنّ غراتسياروزا لم تقبل أن تخبرني عن نوع ذلك السحر ولا من سيستخدمه.

رفضت بالطبع وبمزيج من الرهبة والرعب القيام بمثل هذا التدنيس والتطاول على المقدّسات، رغم الغواية التي وقعت فيها بسبب وعد الهوى الذي أعطته غراتسياروزا ونوعاً ما بسبب المئة درهم. آه، مئة درهم لتسديد الدين الوحيد المترتّب على أمّي منذ أن مات أبي! مئة درهم! كانت حلمي، حلماً كبيراً مثل الأحلام التي كانت توحي بها عواطفي اليائسة تجاه غراتسياروزا، لكن أن أحصل عليها بذلك الثمن!

أفضّل أن تصيبني قبلها مئة صاعقة! بل إنّ قتل رجل هو أسهل عليّ من هذا! وقد قلت كلّ هذا للفتاة بصراحة تامّة.

«...ألا ترى أنّني كنتُ على حقّ! وأنت الذي كنت تدّعي أنّك على استعداد للذهاب إلى الجحيم...!».

«آه، اطلبي منّي ماشئت، قولي لي أن أرتكب أيّة جريمة أخرى، وسأرتكبها من أجلك، أمّا هذا فلا، هذا لا، لا، أبداً..». بعد أخذٍ وجذبٍ طويلين ذهبت غراتسياروزا وهي تضرب الأرض بقدميها بينما بقيت أنا كأنّني في أحلام اليقظة، واقفاً هناك، مفتوح العينين لكنّني لا أرى شيئاً، احمرّ أنفي وسط الضباب، وكنت أتساءل فيما إذا كان الأمر كلّه مجرّد حلم ورؤية.

في تلك الليلة لم يُتلَ نشيد «يا مريم العذراء» ولم أشعر بأيّة لذّة وأنا أتناول حساء الفاصولياء الذي حضّرته أمّي التي سألتني: «لعلّك مريض!» ثمّ أرادت أن تسقيني الحليب المغليّ كي أتعرّق!

بعد حوالي شهر، وبسبب عاصفة هوجاء تخرّب سقف بيتٍ قريبٍ من الكنيسة: وشاء سوء الطالع أن يكون هذا هو بيت الدائن الذي كان فقيراً مثلنا فطلب أن ندفع له الدين بعد سنين وسنين من التأجيل.

لم نكن نملك ولا حتّى عشرة فرنكات بين أيدينا، لذلك فقد توجّهنا برجاء حارّ إلى الدائن بأن يصبر قليلاً، لكن أنّى لذلك الشيطان الفقير أن يصبر وقد أصبح في بيت مكشوف بلا سقف؟ وفي فصل الشتاء؟ باختصار: ادّعى الرجل على أمّي. وكان نهاراً تعيساً بالنسبة لنا ونحن لا نعرف ما هو لون حاجب المحكمة ولم نضع قدماً في محكمة أبداً ولا حتّى كمجرّد شهود. بدا لنا الأمر مخجلاً ووصمة عار أصابتنا، خاصّة أنّنا كنّا لا ندري من أين لنا أن ندفع.

يا قدّيسي جوليانو! نقّبتُ في كلّ حفرة وحجر وصليّت وابتهلت ولكن للأسف الشديد إذا كانت النقود ميّتة فهي كانت آنذاك تحتضر.. ولم أجد نفساً تخلّصني وتقرضني مائة درهم. فهل كان لابدّ من الاستسلام والاستغناء عن النفقات بل ووضع متاع المنزل في المزاد؟ في خضمّ اليأس والقنوط تذكّرت ذات ليلة المئة درهم التي وعدتني بها غراتسياروزا، وأعترفُ لكم أنّي تجرّأت في لحظة يأس على تدنيس أفكاري برأي إعطائها الزيت المقدّس. لكنّي فكّرت أيضاً بالذي سيستعمل فيه ذلك الزيت وتذكّرت أنّني سمعت ذات مرّة أنّ

بعض السادة ممّن لا يعتقدون بالله وبالقدّيسين يرغبون بتدنيس ديننا المقدّس بتعميد الحمير والكلاب ومثلها من الحيوانات وهم يحاكون التعميد محاكاة رهيبة ويستعملون في هذا زيتاً مقدّساً وماء مقدّساً حقيقيّين، وهنا انتصب شعري فرقاً وتساءلت في نفسي ماذا جرى لي حتّى عقدت العزم ولو للحظة واحدة على ارتكاب مثل هذا الإثم.

لكنّ التفكير بالضرّاء التي رزحنا تحتها كان يتعقّبني بعناد وقسوة وكان الشيطان يحيط بي من كلّ جانب: كانت فكرة المئة درهم من غراتسياروزا – وقد نسيت كلّ ما يتعلّق بوعود حبّها.. – وصورة متاع بيتنا المعروض في ساحات المزاد العلني وسط سخرية الجميع كانت تختلط كلّها في ذهني حتّى أنّني جلست أصلّي بحرارة وأبتهل إلى القدّيس جوليانو. ياقدّيسي جوليانو ساعدني أنت وإلّا تهتُ وخسرتُ. كان هذا عبثاً، عبثاً كنت أصلّي وأبتهل! لابدّ أنّ شفيعي كان أصمّ في تلك الليلة ولم يسمع دعائي بسبب عصف الرياح الشديد...والواقع أنّ الشيطان ركبني ولم تنفع حيلة في طرده. أشرق عليّ الفجرُ وأنا يقظٌ أتصارع مع تلك الأفكار الرهيبة. وهكذا فإنّي توجّهت في النهاية إلى القدّيسة بربارة التي كانت شفيعة أمّي المسكينة ورجوتها بحرارة شديدة أن تنقذني إن لم يكن بفضلٍ لي فشفقةً على أمّي العجوز، وقد استجابت لي. أنا على ثقة من هذا، على ثقة بأنّها كانت هي القدّيسة بربارة، هي التي أنقذتني وألهمتني وساعدتني.

هنا ألقى العم سالفاتورِه علينا موعظة طويلة سأوفّرها عليكم رغم أهميّتها الكبيرة، ثمّ تابع وسط انتباهنا وفضولنا:

– ما إن طلع النهار حتّى توجّهتُ إلى بيت العمدة وطلبتُ

غراتسياروزا وقلت لها: «هل تعلمين أيّتها الرفيقة غراتسيارو: لقد أعدت التفكير بتلك القضيّة...».

«كيف؟ قالت وهي توسّع عينيها وتجذبني نحو زاوية في البهو. – هل قبلتَ؟ لكن اخفض صوتك».

«أجل!» أجبت وأنا أفتح عينيّ أيضاً. وبما أنّي أريد أن أجني الكثير بعد أن انغمست في القضيّة: «اسمعي، إنّي أفعل هذا من أجلك، لأنّي لا أستطيع أن أقاوم.. لو تعلمين كم أحبّك! إذا تابعت هذه القسوة تجاهي فإنّي سأموت، هذا سيقتلني بالفعل..».

«على مهلك يارفيق...تمتمت الخادمة وهي تنظر بريبة نحو نوافذ سادتها التي مازالت مغلقة. – إذا سمعوك سيطردونني. سننظر بالأمر فيما بعد...أخبرني إذن...؟»

«ستمرّين هذا المساء بالبيت عندما تعودين من العين!..»

وفي الواقع فقد جاءت غراتسياروزا لاحقاً فسلّمتُها عبوةً صغيرة من الزيت. رأيت عينيها الخضراوين الواسعتين تبرقان سروراً ولم يبق إلّا القليل حتّى تقبّلني. بعد أن خبّأت العبوة بإحكام ناولتني ورقة مئة ليرة لكنّي لم أقبلها منها إلّا بعد مراسم ألفٍ من التمثيليّات الاستعراضيّة. ثمّ بدأنا نتكلّم تلك الليلة عن الحبّ: في تلك الليلة صدح من على برج القدّيس جوليانو أروع نشيدٍ يمكن تصوّره أنْشَدَ «يامريم العذراء». كان رائعاً بهيجاً بحيث أنّه بدا نشيداً مختلفاً عن «يامريم العذراء» الحقيقيّ؟.

بعد سنين عديدة أصبحت غراتسياروزا زوجتي: وقبلتْ عندها أن

تبوح لي بسرّ الزيت المقدّس.

لقد كانت سيّدتها السيدّة دانييلا غنيّة لكنّها كانت قبيحة كريهة، وكانت مولّهة حتّى الموت بقريبٍ لها شابّ جميل يحمل شهادة جامعيّة. بعد أن فشلت كلّ محاولاتها في إغرائه، لجأت إلى ساحرة مشهورة في قرية قريبة، فقالت لها الساحرة: «أحضري قليلاً من الزيت المقدّس وادهني به جبهة الشاب وهو نائم في منتصف الليل خلال ليلة يكون فيها القمر بـدراً....». كانت غراتسياروزا كاتمة أسرار السيّدة دانييلا، وهكذا فكّرتْ بي في الحال، لأنّني شمّاسُ الكنيسة وقادرٌ على إحضار الزيت المقدّس. بعد أن حصلت السيّدة دانييلا على الزيت بفضل المال والغموض، تسللّت خلال ليلةٍ سطع فيها ضياء البدرإلى غرفة الشابّ، وعندما دقّت ساعة منتصف الليل دهنتْ بالزيت المقدّس جبهته الرائعة، وهو نائم. قالت الساحرة إنّ قريبها بعد هذه العملية سيتولّه هو أيضاً بها حتّى الجنون...

«ماذا إذن؟» سألتُ غراتسياروزا «ماذا عن قريبها؟».

«للأسف – أجابتني بحزن – لم يتولّه بها، وليس هذا فقط، بل إنّه سافر بعدها إلى كالياري وتزوّج من فتاة أخرى».

«تصوّري! هتفتُ وأنا انفجر في ضحكة صاخبة – بالطبع! لأنّ الزيت الذي أعطيتُكِ إيّاه كان زيتاً عادياً ليس فيه من القداسة ولا حتّى اسمها!...»[1].

(1) هذه الرواية تاريخيّة مثل سابقتها التاريخيّة أيضاً. وقد اهتمّت بها في حينه حتّى صحف جزيرة سردينيا. (المؤلّفة)

رواية بالحد الأدنى

يتربّع بيتنا الأخضر على قمّة في أعلى القرية ويهيمن عليها برمّتها. ينتصب البيت على خلفيّةٍ زرقاء من الجبال الكلسيّة التي ترتفع تحت سماءٍ عذبةٍ حلوةٍ عميقة تُذكّر بلوحات الفنّان فان هاين[1] الشهيرة وسَمَواتِها ذات الطابع الفلامينغي[2]. يتميّز البيت بسقفه المدبّب الذي يعلو إفريزاً أبيض أنيقاً، وبنوافذه ذات الطابع القوطيّ في الطابق الثاني وبشرفته التي تحيط به في الطابق الأوّل. كان بيتاً صغيراً مرتفعاً بلونٍ أخضر صقلته الشمس، يبدو كأنّه مجسّم صغير لبيت صينيّ قُدَّ من خزف، كان يوحي بالمرح والعذوبة حتّى أنّه مازال يضفي نغمةَ فرحٍ على ذكريات طفولتي رغم الحالة الحزينة التي سأرويها لكم والتي أجبرتني على الابتعاد عنه نهائيّاً.

مرّت عشرون سنة. كانت عائلتنا، عائلة ماكْسُو النبيلة، أغنى عائلة في القرية وكانت تتكوّن منّي، أنا طالب الحقوق الأنيق، ومن أبي الأكثر منّي أناقة رغم أنّه أتمّ الأربعين من عمره، الفارس الأرستوقراطيّ من فرسان الجبل، الذي عاش وهو يصيد الصقور وخنازير البرّ عبر

(1) فنان هولندي من القرن التاسع عشر اشتهر بلوحاته التي تبرز االسماء بأشكال مختلفة جذّابة.

(2) نشأ الرسم الفلامنغيّ في القرن الرابع عشر في مناطق لافياندر الهولندية وبمبادرة الفنان جان فان إيك Jan van Eyck. وقد ازدهر هذا الفن بعد ثراء المنطقة في القرن الخامس عشر.

غاباتنا، غابات البلّوط والسنديان، فضلاً عن قريبتي اليتيمة التي كان هو وصيّها وأنا – بالطبع – متيّماً بها.

لم يكن ذاك حبّاً دائماً: بل أذكر أنّني كنت أشعر منذ طفولتي بنفورٍ أصمّ تجاهها. كنّا في نفس العمر تقريباً، لكنّها كانت كبيرة قويّة، وكانت تضربني بودّ كلّما تنازعنا وهي تهدّدني كالأشرار بأن تنتقم منّي في بضع سنين. عندما جاءت بعد ذلك إلى بيتنا عقب موت أمّها، بدأت أقضي الليالي في أرقٍ حسرةً على اضطراري للمكوث دائماً معها، أي قرب تلك الضراوة الصغيرة المدلّلة وغير المهذّبة، التي كان أبي يغدق عطفه عليها بينما يجب أن أكون أنا معبوده الوحيد.... أمّا هي، غابرييلا أو جيلا كما كانوا يدعونها، فكانت لا تظهر لي إلّا القليل من الحبّ. لكنّها غيّرت شخصيّتها بصورة كاملة عندما لاحظتْ قلّة حفاوتي بها، وعندما خفّت أحزانها على وفاة أمّها لم ترجع إلى سابق عهدها من الحياة بل انغلقت دوني على نفسها وأظهرت لي برودة حملتني في نهاية الأمر على أن أكرهها. لم تكن تبادلني تقريباً أيّ حديث، كانت تمرّ أمامي دون أن تعيرني نظرة، وكانت تتجوّل هنا وهناك في البيت وكأنّها لا تراني. وكانت تفرض نفسها على كلّ شيء وعلى الجميع بحلاوة صامتة جديدة عليها. كانت فرائصي ترتعد من شدّة الغضب: لذلك فكنتُ على استعداد لأن أقدّم عشر سنين من عمري لقاء أن أحصل على سبب واحد يساعدني على أن أتّهمها بأيّة تهمة أمام أبي. كنت أسعى بشتّى الوسائل لإشعال بعض نزاعاتنا القديمة، لكنّ محاولاتي كانت تذهب أدراج الرياح. فهي لم تكن تعيرني التفاتة، وأكثر ماتفعله هو إلقاء ابتسامة سخرية تجيب بها على وقاحةِ استفزازاتي وحِدّةِ تلميحاتي إلى كونها دخيلةً على بيتي...بهذا

كنت أظهر كأنّي مجرّد طفل رغم أعوامي الستة عشر بينما كانت تدلّ على أنّها أصبحت بأعوامها الأربعة عشر فتاةً نضجت قبل الأوان ولا يعلم إلّا الله بماذا تحلم. كان الأمر سينتهي على أسوء ما يمكن لولا أن جاء شهر تشرين ثاني/ نوفمبر وسافرتُ لأتابع دراستي.

تسعة شهور من البعد ليّنت نفوري منها، بل إنّي عدتُ بأطيب النوايا الممكنة علّنا نتصالح، غير أنّ جيلًا لم تغيّر رأيها، ولم تكتفِ باستقبالي أبرد استقبال بل بدا لي أنّها تعتبرني ضيفاً أكثر ما أنا صاحب بيت بعد أن تعوّدت بمرور الزمن على البيت ومافيه!

بعد سنة وسنتين وسنوات أخرى كثيرة سئمتُ من ملاطفتها ومن تعقّبها وانتهى بي الأمر أنا أيضاً لأن أقلّدها. فلا أسرار بيننا أنا وجيلًا ولا عواطف ولاشيء من ذلك الحرص والانتباه أو تلك الإغاظات العابرة المعروفة بين أشخاص يعيشون تحت سقف واحد. كان يقال في القرية إنّني سأتزوّج قريبتي بعد تخرّجي بينما لم تكن هي تمنحني حتّى بصيصاً باهتاً من المحبّة، بل لم تكن أيّة خاطرة تجمع بيننا، نحن اللذين كنّا نتقابل كلّ دقيقة وثانية، نحن اللذين أصبحنا شابّين رائعي الجمال: أنا أسمر أنيق صاخب أُثير الإضطراب في أنحاء القرية بمجرّد ظهوري فيها، وهي نحيفة أثيريّة شقراء بعينين لايُسبرعمقُهما بزرقتهما الشاحبة لكن البرّاقة الشبيهة بزرقة جبالنا الكلسيّة التي تهيمن على بيتنا، وبشرة حمراء تظهر مخمليّةً على خدّيها عندما يشكّلان غمّازتين فاتنتين كلّما تواضعت وابتسمت، وعلى رقبتها وأذنيها الصغيرتين الدقيقتين بل وحتّى على يديها. كانت لا ترتدي إلا ملابس بيضاء سواء كانت في البيت أو خارج البيت: ولاتزينّها بشريطة أو جوهرة أو بلون من الألوان، لا وألف لا. أمّا أنا الذي كنت أكره اللون الأبيض

فكنت أهزأ بها وأدعوها كاسّاندرا فيديله[1]، لكنّها كالعادة لم تكن تعبأ بمزاحي.

كنت، ذات ليلة وفي وقتٍ متأخّر جدّاً، أهمّ بإغلاق نافذة غرفتي عندما رأيت جيلّا على شرفة الطابق الأوّل. كانت تنتصب جامدة ويداها متشابكتان على الدرابزين، كانت ترتدي على عادتها ثياباً بيضاء، ثوباً طويلاً ناعماً جعلها تبدو أطول قامة وأنحف قدّاً: كان للثوب كمّان ينسدلان عريضين أسفل الكوعين ليمتدّا على الوركين الأنيقين ويكشفان عن جانب من الذراعين النحيفتين الجميلتين، وكان شعرها الأجعد يتمرّد وينسدل على كتفيها بنصفٍ مجدول والنصف الآخر محلول.

كان ضوء القمر يسطع قبل المغيب ويضيئ وجهها فيجعلها تبدو أشدّ بياضاً، بل شفّافة رائعة، ما اضطرّني لأن أعترف رغم نفوري منها أنّها كانت جميلة. تجمّدتُ على الشرفة لأتأمّلها وكأنّها من تجلّيات السماء الخارقة...لكن ماذا كانت تفعل في مثل تلك الساعة؟ لا أذكر أنّي رأيتها على الشرفة في مثل تلك الساعة، وبما أنّي أعلمُ أنّها ليست مغرمة بسحر الليل، فقد ظننتُ أنّها تنتظر شخصاً ما، خاصّة وأنّي فكّرت فجأة أنّ جيلّا كانت في عمر لا يمكن فيه لفتاة جميلة أن تكون بلا عشيق يهواها.

أجل! كانت جيلّا تنتظر! شعرت بالحقد القديم على قريبتي

(1) كانت Cassandra Fedele من أشهر المفكّرات في عصرها. عاشت في شمال إيطاليا خلال القرن الرابع عشر والإشارة هنا إلى لوحة رسمت فيها بثياب باللون الأبيض.

ينبعث بصورة غريزيّة من قلبي، أو أنّه كان أمراً شبيهاً بالحقد. لم أكن عالم نفس متعمّق لأُدرك أنّها كانت مجرّد غيرةٍ سبقت حتّى هيامي بها، لذلك فقد بدا لي وقبل أن أعرف سبب سخطي المباغت أنّ جيلّا تدنّس شرف بيتنا بخفّة الفتاة التي تتكلّم مع الرجال في عتمة الليل، لذلك فقد شعرت بالألم يعصر رأسي في نفس الوقت الذي انتابني فيه فرحٌ غريب بعد أن فكّرت أنّ الفرصة حانت لإذلالها. إذلالها، آهٍ على إذلالها!...أن أرى أخيراً عينيها المتغطرستين الغامضتين، وجبهتها الباردة الساخرة، تخضع ذليلة أمامي! أيّ نصرٍ حينها!...عدت طفلاً دون أن أفكّر بعاقبة عملي الأرعن البغيض، تركتُ النافذة ونزلت لأمثُل قرب جيلّا وكأنّني زوج أمسك بزوجته بالجرم المشهود، وقلت لها بصوت خافت لكن غاضب: – وماذا تفعلين في مثل هذه الساعة؟...

نزعتُها عن تخيّلاتها نزعاً عنيفاً فرأيت وجه جيلّا يتّشح بشحوب مخيف وهي تنظر إليّ مرعوبة وترتعد من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها: فكانت هذه براهين إضافيّة زادت من شكوكي. لكنّها مالبثت أن استعادت هدوءها وعادت الحمرة إلى وجهها بينما برقت عيناها بحزن قاتم.

– أفْعلُ مايحلو لي أن أفعله ! أجابتني بنبرة حادّة، وهي تدير لي ظهرها لتستند على الدرابزين. كانت هذه هي المرّة الأولى منذ أن جاءت إلى بيتنا التي أراها تنفعل على هذه الطريقة. أحدث صوتها في نفسي تأثيراً غامضاً أعادني إلى رشدي ليحمرّ وجهي خجلاً من قلّة شهامتي. لكنّ غطرستي منعتني من أن أطلب المعذرة كما تذكّرتُ موقفها المتعجرف، لذلك فقد اكتفيتُ بتبرير عملي بطريقة جبانة مليئة بالكذب، كما تفعل النساء السخيفات.

– انتبهي يا جيلّا، قالوا لي إنّ هناك بينك وبين المسؤول الطبّي آتي بعض الغزل وإنّكما تتبادلان الحديث كلّ ليلة...لو كانت نواياه حسنة لكان قد طلب يدك من أبي، لكنّه... لاتستائي منّي با جيلّا، لقد أخبرتك بهذا لصالحك... عندما رأيتك على الشرفة في هذه الساعة المتأخّرة ظننت أنّك تنتظرينه فنزلت...لكنّي أعتقد أنّ ذلك محض كذب... أنا لا أصدّق هذا يا جيلّا...لكن إن كان صحيحاً...

لم أتمكّن من المتابعة: تلك الكذبة، تلك الكذبة المعيبة كتمت صوتي، جمّدت شفتيّ. أمّا جيلّا فقد وقفت ولم تجب.

أردت أن أواصل تمثيليّتي غير الحميدة: أردت أن أعتذر منها ولم أكن قادراً على فعل أيّ شيء، في النهاية غادرتُ دون أن أدرك ذلك وعدت إلى نافذتي وأنا أتساءل فيما إذا كان هذا مجرّد حلم.

رأيت أنّ جيلّا بقيت هناك، منحنية على حافّة الشرفة ووجهها بين يديها...

كانت تبكي! بكاءً صامتاً يائساً تقطعه من حين لآخر شهقات تشنّجيّة أثّرت في نفسي وكأنّها انتقلت إليّ بالكهرباء...لا أعرف كيف أصف مشاعري عندما رأيت جيلّا تبكي بذنْبي: لعنتُ شكوكي وبقيتُ في مكاني أعضّ على شفتيّ حتّى أدمتا، تسمّرتُ على حافّة النافذة بينما انفجر قلبي في صدري.

كان القمر يواصل هبوطه ليغرب وراء الأفق المفتوح مصبوغاً بلون ورديّ خفيف، كان يخبو شيئاً فشيئاً وتتدرّج ألوانه نحو قرمزيّ مزرقّ، ففضيّ فرماديّ، بينما كان يهبّ نسيم آخر الليل العليل ليحمل إليّ عطور الصبّار والآس التي كانت تلمع في السهل الفسيح الممتدّ

تحت القرية الساكنة، وكذلك عطور الجبال الكلسيّة المضمّخة برطوبة الليل الخريفي. كان هناك بلبل يغنّي بين الورود الصفراء المنتشرة في حديقتنا: كانت موسيقا غنائه ناعمة حزينة، وكنت أنا مجذوباً بمناظر الطبيعة الشاحبة، منتشياً بعطور النسيم الرطبة، كما أثار أعصابي بكاء جيلّا، ممّا أيقظ في نفسي خليطاً من مشاعر الحزن والقلق والشهوانيّة التي كنت أشعر بها ذات مرّة في المدينة التي كنت أدرس فيها عندما كنت أسمع ألحاناً تأمّليّة حزينة لموزارت يعزفها بيانو آنسة مسلولة محتضرة...بقيت طويلاً على هذا الحال: لكنّي وجدت نفسي بعد شيء من الوقت إلى جانب قريبتي التي كانت يداها معقودتان على حديد حافّة الشرفة البارد....

غاب القمر وساد المكان بصيص مبهم من الضياء الفلكيّ، وأجبرتني الريح على صكّ أسناني. توقّفت جيلّا عن البكاء ولم تكن ترتجف مثلي. كنت أراها رغم الظلمة، بيضاء في كلّ شخصها، بل حتّى في شعرها الأشقر وعينيها الشاحبتين، عدا وجهها ويديها فكانت ورديّة، وهكذا فقد فكّرت أنّ ذلك الوجه، وتلك الشفتين المرجانيّتين وتلك اليدين، لابدّ أن تكون لاسعة بالفعل...

جيلّا – بدأتُ حديثي – لا أستطيع الذهاب إلى سريري دون أن أطلب منك المعذرة...استقامتْ وبقيتْ صامتة. فتابعتُ – سامحيني إذا كنت قد أبديت شكّاً فيك. يا لألسنة السوء! الجبناء!...لكنّك أنت طيّبة ولا بدّ أن تسامحيني، أليس كذلك؟ أجيبيني يا جيلّا.. هيّا يا جيلّا... أجيبي!...

– سأذهب غداً من هذا البيت! – أجابت في نهاية الأمر بصوت مازال

يهتزّ بالبكاء. لقد أكملت عامي الواحد والعشرين!..

- ماذا قلت يا جيلّا؟ هل أنت مجنونة؟... قلت لها مرعوباً، وبما أنّها لم تتابع، فقد أدنيتها كي أرى وجهها بطريقة أفضل. لم تتحرّك. شممت عطر ثيابها يصعد إلى رأسي. تاهت أفكاري. همتُ خلال لحظة بقريبتي حتّى إنّي فقدت رشدي: يبدو مستحيلاً، لكن هذه هي الحقيقة.

المكان، الساعة، الندم على إهانتها وذلك البهتان في حقّها، بكاؤها، بل وغناء البلبل الساحر، ثوبها الأبيض الرائع الشبيه بملابس سيّدات القرن الخامس عشر الذي ذكّرني من بعيد بغابرييلا دي استريس صديقة هنريك الرابع الشهيرة، شعرها شبه المحلول، والعطور التي تحيط بها، كلّ هذا ساهم بإشعال الدم في عروقي وبإجباري على التصرّف والتكلّم وكأنّ جرعة من الحبّ حُقِنت بغتةً في دمي فطغت. مالبثتُ أن أخبرت جيلّا بهذا كلّه، قلته لها بعبارات ناريّة نطّاطة متقطّعة لا أذكر منها الآن شيئاً، ولربّما احتاجت لعشر صفحات لتُكتب عليها.

عندما سكتُّ، مرهقا قلقاً، اعترفت لي جيلّا أنّها كانت تحبّني هي أيضاً!...تحمّستُ عندها بل وجنّ جنوني وخرجت عن طوري فضممتها بين ذراعيّ بشيء من الوحشيّة فتقبّلت ذلك على مضض ثمّ قبّلتها على فمها المرجانيّ فوجدت شفتيها باردتين مثل الثلج وبقيتْ هي باردة رغم قبلاتي الحارّة مثل النار!...

كان شهر تشرين ثاني ذلك أغرب شهر في حياتي كلّها. كنت أنا وجيلّا نتجوّل في الأطراف القديمة ببرودة ولامبالاة، لكنّ لقاءاتنا الرومانسيّة الحارّة كانت تجري في الليل إمّا على الشرفة أو بين ورود

الحديقة، في العتمة المزرقّة التي تسود الليالي غير المقمرة أو في سكون الليالي الرائعة المرّصعة بالبدر في عنان السماء. في الليالي الماطرة فقط كنّا نجتمع في الصالة السوداء الصغيرة، الدافئة، التي كان ضوء المصباح الخافت يعطيها إلى حدّ ما مظهر المعبد. كانت جيلّا تجلس بثوبها الأبيض على الأريكة المفروشة بالحرير الصينيّ الملوّن ببقع مورّدة فتبدو كأنّها قدّيسة من العصور الوسطى، أو عذراء لاتينيّة مرسومة بالظلال الذهبيّة على وجهها. كنت أعبدها، وبما أنّي كنت أتمدّد أغلب الأحيان على السجادّة فكنت أبدو كأنّي أمثّل دور العابد المتبتّل. كنت أزداد عشقاً بها: كان حبّي يتّخذ أبعاداً واسعة كبيرة: حبّاً يمكن أن يقتلني رغم أنّه غير متبادل. كنت أتألّم طيلة النهار لأنّي مضطرٌ لإخفائه. إذا أنّ جيلّا قالت لي: – لا أريد لأحدٍ أن يعلم أنّنا نحبّ بعضنا، ولا حتّى أبيك. ذلك حتّى تصبح قادراً على الزواج بي، أي بعد أن تتخرّج. أمّا إذا قلت كلمة واحدة فاعتبر أنّ كلّ شيء انتهي بيني وبينك! وكنت أتألّم أيضاً طيلة الليل: رغم أنّي كنت أضمّها إلى صدري، رغم أنّي كنت أقبّلها وأنا أسمع أقوالها تؤكّد لي أنّي سأكون لك، لك للأبد، وسأحبّك وحدك، أنت وحدك! كنت أتألّم رغم ذلك أشدّ الألم، ألماً مبهماً يختلط بمتعة عميقة عندما أكون برفقة جيلّا وأشعر بأنّها تحبّني، كان هذا كلّه يزرع نوعاً من الجنون في رأسي المضطرب. كان كلّ شيء يدور حولي وكنت أخلط بين الماضي والحاضر، والأحلام بالحقيقة. لو قيّد لي في تلك الفترة أن أكتب صحيفة لي لكنت أمليت رواية نفسيّة مهمّة، لأنّي على اقتناع أنّ لا أحد كان يحبّ بأكثر وبأغرب من حبّي.

عندما حلّ تشرين ثاني وقرّرت أن أسافر بدا لي أنّني أستيقظ من

حلم طويل: أذكر أنّي بكيت بكاء الأطفال وأنا جاثٍ على ركبتّي في الليلة الأخيرة التي قضيتها مع جيلّا، ولن أنسى ماحييت الرعشة التي شعرتُ بها عندما سمعتها تقول لي: – وإذا وجدتني... ميّتة...عندما تعود...؟...

وجّهت إليّ نظرة باردة بينما كانت فرائصي ترتعد ثمّ سمعتها تتمتم بتجهّم واضح: – لم تكن تنفصل عنّي في مرّات سابقة على هذه الطريقة! – لكنّي لم آبه حينها بنظراتها ولا بكلامها بل فكرت بهم بعد حين.

... سافرتُ. ظهرت كالمذهول خلال الأشهر الأولى. لم أكن أدرس ولا آكل ولا أنام وكنت أكتب لجيلّا رسائل طويلة...لم أكن أرسلها لها..ذلك كما كانت تريد كي لا تثير الشكوك: لكنّي تعوّدت شيئاً فشيئاً على البعد ودخل حبّي بمرور الزمن في مرحلة جديدة: فقد اشتدّ حبّي لها أكثر من ذي قبل لكنّ آلآمي توقّفت بين رجاء وأمل.

انكبّيت على دراستي ونجحت في امتحاناتي نجاحاً باهراً.

بقي عام وستصبح جيلّا ملكاً لي! أيّة أحلام، أيّة مشاريع، وأيّة آمال برّاقة، وأيّة سعادة على فكرة العودة! غير أن آخر رسالة وصلتني من أبي أفسدت مزاجي وأدخلت حزناً فظيعاً على رحلتي: طلب منّي أن أسرع بالعودة ووعدني بأحلى مفاجأة عند وصولي....

أطلّت على فكري أبشعُ النُذر، وكانت كلّها تقطع أنّ جيلّا قد خُطبت لغيري... ولربّما أنّها تزوّجت أيضاً. كان هذا الغموض يزيد من مخاوفي وروعي! كنت أشعر بالدوّار تلو الدوّار عند هذه الفكرة، بل إنّي بدأت أفكّر بالإنتقام إذا وجدت أنّ جيلّا قد خانتني على هذه

الطريقة...لكن ممّن أنتقم ولماذا؟...لم يكن هناك بين رجالات القرية شابّ جميل ثريّ آرستوقراطيّ مثلي، ولا أحد يمكنه أن يحبّها كما أحببتها أنا، لا أحد يمكنه أن يهبها مكانة السيّدة كالتي تنعم بها في بيتي! فلماذا يمكنها أن تخونني، بعد كثير من الأيمان المشدّدة التي قطعتْها والدموع التي ذرفتْها وبعد قبلاتنا ووعودنا؟ لكنّ طمئنتي تلك كانت ضرباً من العبث.

بينما كانت العربة تقلّني إلى القرية عبر الأريـاف المقفرة، والحوافّ المغطّاة بأنواع الأشجار المورقة التي تضمّخ جوّ الفجر البارد بنفحات من البخّور تحت غابات السنديان المتشابكة مع نباتات بريّة مختلفة، كانت تعود بحدّة إلى مخيّلتي ذكرى النفور الذي دام طويلاً بيني وبين جيلّا، تذكّرت أنواع التنغيص التي كنت أضايقها بها، وتهديداتها عندما كانت طفلة سيّئة تهدّدني بالانتقام عندما يحين الوقت، وازدرائها وعداوتها الباردة.

تذكّرت أيضاً شفتيها الباردتين تحت شفتيّ الملتهبتين، وعينيها العميقتين تحت نظرات هذياني..وذلك العهد الرهيب بالسكوت عن هوانا...تهتُ وضعت، تهت وتهت وتهت!

لم تحبّني جيلّا دقيقة واحدة، لكنّها تصنّعت أنّها تحبّني لتقودني نحو الجنون، لتنتقم منّي عن طريق خيانتي في اللحظة المناسبة! تأكّدت من الأمر وبدأت أعصر يديّ وأهذي كالمهووس. لكن ما إن رأيتُ خيال جبالنا يلوح وراء المرتفعات السمراء في الأفق البعيد، وقد ظهرت بلونها الورديّ مع أولى لمسات الشمس على خلفيّة السماء الذهبيّة، حتّى تخلّيت عن مخاوفي الجنونيّة وواصلتُ رحلتي

مبتسماً منتشياً ببهاء الصباح الرائع. أصبحتُ متأكّداً أنّ جيلّا تنتظرني الآن بفارغ الصبر، ونسيت كلّ النسيان المفاجأة الموعودة.

...وجدت أبي وجيلّا بانتظاري في غرفة الطعام في الطابق الأرضيّ، فاجأتني في الحال ثلاثة أشياء: أثاث الغرفة القديم زال واستُبْدل بأثاثٍ جديد فاخر رائع، وأبي الذي بدا وقد استعاد شبابه، أنيقاً بثيابه السوداء عيناه تلمعان ببريق السعادة والحبور: (كانت ذقنه الشقراء القصيرة المفروقة الشعر عند الذقن تهبه مظهراً رائعاً غيّره برمّته)، ثمّ جيلّا وقد ارتدت ثياباً ملوّنة!...

كانت في صدر الغرفة، أسندت كتفيها إلى النافذة المغلقة، كان وجهها معتماً أمام خلفيّة النافذة المضيئة التي كان يحيط نورها بشعرها مشكّلاً هالة ملتهبة، ومع ذلك فقد بدت لي شاحبة اللون رغم أنّ عينيها تبرقان بابتسامة غامضة.

لاحظتُ كلّ هذه الملاحظات بسرعة البرق ولم أتمكّن من توضيحها إلّا بعد ذلك بقليل. كنت أشعر حينها بنشوة دفعتني لأن أتّجه نحو جيلّا كي أعانقها، حتّى قبل أن أتّوجه نحو أبي. لكنّها مدّت إليّ يدها ببرود. أمّا أبي فقد سُرّ لاندفاع عواطفي غير المعهود نحو جيلّا، فقام بتفتيل شاربه الأشقر وقال لي مبتسماً:

– بإمكانك أن تعانقها. إنّها زوجتي!...

السّيدة البيضاء

كنّا نملك مزرعة قرب أجمل قرى نوّرو تديرها عائلة من نفس القرية.

بدأ ربُّ هذه العائلة يهرم لكنّه بقي قويّاً نشيطاً. كان رجلاً من سردينيا غريب الطبع، رأسُه أبيضٌ جميلٌ كرأسِ قدّيسٍ في لوحات الفنّان إلبيروجينو[1]، كان يأتي لعندنا إلى نوّرو ليدفع الإجرة ويعطينا منتجات المزرعة، وكان يحكي لنا كلّ مرّة قصصاً غريبة تبدو كأنّها خرافات من نسج الخيال، مع أنّها قصص حصلت في الواقع بين الجبال والكروم والسفوح الغامضة التي أمضى فيها حياته تنقّلاً وترحالاً، بل وشارك في كثير منها...كان يدعى العمّ سالفاتورِه.

هذه هي آخر قصّة حكاها لنا، ولم يصدّقها كثيرٌ منّا رغم أنّها حدثت بالفعل في هذه الأراضي المعروفة بالخرافات وبالقصص القاسية الخارقة والمغامرات الغريبة.

كانت ليلة من ليالي أيّار/ مايو 1873. كان هناك شابّان من الرعاة نائمان قرب النار التي بدأت تخمد داخل كوخ بعيد عن أراضي قرية العمّ سالفاتورِه. في الخارج وقرب الكوخ كانت الأبقار نائمة أيضاً في حظيرة من الحجارة والأعشاب الجافّة، كان قمر نيسان/ ابريل

(1) بيترو بيروجينو (1446–1523) رسّام من مشاهير الفنانين الإيطاليين في عصر النهضة. من أشهر تلاميذه الفنان الكبير رافائيل.

يتلاشى في الغرب بلون أحمر قان ويضيئ الأراضي المترامية المظلمة المحاطة بجبال عارية عموديّة شديدة الإنحدار. استيقظ أحد الرعاة فجأة ونهض لينظر فيما إذا كان الفجر قد ظهر. عندما وجد أنّ الليل مازال مخيّماً حرّك النار وأوقدها ثمّ تربّع على قدميه وبقي صامداً جامداً تعذّبه فكرة في رأسه: ثمّ مالبث أن أوقظ رفيقه.

كان كلاهما أسمران لطيفان قويّان، كان أوّل من استيقظ يدعى بيلّيا، أي جومتاريا، كان جميل الطلعة وأطول من زميله، يدلّ رأسه على نبل المحتد يدفع المرء لأن يتساءل فيما إذا كان إبن دُنٍّ[1] من الدُنّات.

- أنطونيو؟ نادى رفيقه وهو يهزّه ليوقظه.

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ أجاب أنطونيو وهو ينهض ويجلس قلقاً شاخص العينين. ماذا هناك؟...

- لا شيء. أيقظتك لأقول لك أمراً. اسمع. إنّها الليلة الثالثة التي أحلم فيها بنفس الحلم. إني لا أؤمن بالأحلام، لكن، عليك بالله، عندما يرى المرء نفس الحلم لثلاث ليال متوالية، فلابدّ أن يراجع حساباته.

- ألهذا أيقظتني؟ أجاب الآخر بابتسامة تعبّر عن الشكّ والشفقة. وهل حلمت ربّما أنّهم يسوقونك إلى المقصلة؟

- لا - أجاب بلّياً بهدوء. - اسمع. تظهر دائماً لي في الحلم سيّدة ترتدي ثياباً على الطريقة القديمة، هذا ما أعتقده لأنّ السيّدات

(1) دُن Don لقب يدل على رفعة المكانة الاجتماعية أو السياسية أو الدينية.

يرتدين الآن ثياباً مختلفة، وعليها عباءة من مخمل أبيض تغطّيها من رأسها حتّى أخمص قدميها. لها وجه أبيض مثل عباءتها، عيناها سوداوان، كبيرتان، وحاجبان معقوفان كثيفان متقاربان، أمّا شعرها فأسود أيضاً يستدير حول أذنيها...

- حسناً! أي أنّها مثل نساء ناحية أولياتا! قال أنطونيو بسخرية وهو لا يعير ذلك الحلم أهميّة خاصّة لأنّه يريد أن يعود لنومه.

- دائماً نفس المرأة... ثلاث ليال متوالية...هل تفهم؟

- ماهذا بحقّ الجحيم. يالله، أن تحلم بسيّدة!

- انتظر. كانت تطيل النظر إليّ، بعينيها الجميلتين ونظراتها القاسية التي تخيفني وتدهشني، ثمّ قالت لي: «سر يا بيلّيّا، سرّ اذهب إلى حقول القدّيس ماتيّو، قرب الغابة، إلى جانب النبع. ستجد حجراً من الغرانيت على بعد عشر خطوات من النبع، قرب أوّل شجرة في الغابة، إنّه أكبر حجر هناك. ارفع الحجر وستجد تحته حجراً آخر ملتصقاً بالتراب. ارفع هذا الحجر أيضاً فترى صليباً من حديد موضوعاً عبر حفرة. سر يا بيلّيّا، سرّ، عليك أن تصل اليوم بالذات، وإلّا فعبثٌ خطواتك وسيستولي الشيطان على نصيبك».

اللعنة، ما أجمله من حلم! صاح أنطونيو. ورغم ريبته وسخريته فقد شعر برعشة تسري في كليتيه. كان قد سمع في طفولته قصصاً عن كنوز خبيئة يحرسها الشيطان الذي يغتصبها إذا لم يعثر عليها أحد بعد بعض الوقت. كما حدث له في صباه الأوّل أمر غريب من ذلك النوع: فحين هرب في إحدى الليالي عبر غابة وكانت تتبعه الشرطة لأنّه كان هارباً متخفّياً آنذاك بعد ن أتُّهم بارتكاب جريمة قتل وبُرِّأ منها بعد

حين، رأى وقتها على ضوء القمر كومة من الأقمشة الرائعة والبروكار وغيرها من أقمشة الحرير الفاخرة، وكذلك قارورتين مليئتين بالذهب، كما سمع بوضوح صوتاً يصدر عن الكومة الثمينة يقول له: قف، هذا كلّه لك، قف! لكنّه سمع وقع أقدام رجال الشرطة تقترب فاستحال عليه أن يقف، فتابع سيره. بعد أن زال الخطرعاد في اليوم التالي إلى المكان، لكنّه وجد بدل الأقمشة الثمينة حجارةً كبيرة من الغرانيت الأسود على شكل لفّات قماش وجذعين محروقين احتفظا بهيئة قارورتين. على الرغم من كلّ هذا فإنّه، هو الذي لا يصدّق إلّا بواقع الأمور، سخر من عزم بيلّيّا على الذهاب عند شروق الشمس إلى سهل القدّيس ماتّيو ليبحث عن الحجر الذي أشارت إليه السيّدة البيضاء في الحلم. لكن الآخر، وإن كان لايعير أيضاً الأحلام كثيراً من التصديق، فإنّه رغب في التأكّد من الأمر وبقي طيلة الليل على إصراره، وكان سيبدأ بدون أيّ شكٍّ رحلته لولا أنّه دخل إلى الحظيرة عند الفجر فوجد أنّ أفضل بقرة عنده تبدو مريضة. كانت بقرة جميلة رماديّة اللون كبيرة الحجم وذكّية وكان يحبّها أكثر من كلّ أبقاره ويدعوها باسم محبّب: «حلوتي».

أنساه مرضُ «حلوتي» المفاجئ حلمَه الغريب ومشروعَه بالذهاب إلى المكان الذي أشارت إليه السيّدة. فذهب إلى القرية وأخذ معه الراعي الذي كان يعالج كلّ أمراض الحيوان الخطيرة. لكنّ العمّ لالّانو لم يتمكّن من معرفة طبيعة المرض الذي أصاب «حلوتي». كان لغزاً: وقد يقال إنّ البقرة قد سمّمت أو أنّ روحاً شرّيرة استولت عليها. ولم يستطع الطبيب البيطريّ، ولا الطبيب المناوب أن يقولا له شيئاً. ومع هذا فقد شفيت «حلوتي» على حين غرّة وبنفس الطريقة الغامضة

التي وقعت فيها بالمرض، ثمّ عادت لتجول مطمئنّة مع رفيقاتها عبر الحقول الطلقة، بين الأعشاب المعطّرة بالاقحوان، وذلك وسط سعادة بيلّيا العارمة الذي نسي بالطبع فكرة التوجّه إلى سهول القدّيس ماتّيو المحجرة.

لكن حدث ذات مرّة أن بيلّيا وأنطونيو كانا وراء الأبقار وهي تسرح بين المراعي عندما مرّا بالصدفة في تلك المرتفعات. كان المكان غريباً مكوّناً من حقول جبليّة جرداء موحشة مليئة بالصخور والأشواك تحيط بها غابات بلّوط أزليّة قديمة تدعى حقول القدّيس ماتّيو عن اسم كنيسة صغيرة مهدومة تقع بالقرب منها.

تذكّر الراعيان حلم أو أحلام بيلّيا وكان أنطونيو سبّاقاً في اقتراح النظر فيما إذا كان هناك بالفعل صخرة وشجرة الأحلام. سارا بمحاذاة الوادي الجافّ وعندما وصلا إلى الغابة تغيّر لون وجه بيلّيا. لقد رأى الشجرة الكبيرة، أكبر شجرة موجودة ورأى صخرة الغرانيت على الوجه الذي رأه في الحلم!

– يا الله! بحقّ الله! – قال وقد امتقع وجهه وبرقت عيناه. اندفع نحو الصخرة لكنّه لم يتمكّن من تحريكها لوحده، فساعده أنطونيو ونجحا بعد محاولات عديدة في تحريكها. حينها رأى بيلّيا تحتها الحجر الأخر الأصغر والملتصق بتراب الأرض. تماماً كما أخبرته السيّدة البيضاء في الحلم!

عندها اضطرب أنطونيو هو الآخر، ودون أن ينبس ببنت شفة واصل مساعدة رفيقه الذي شحب وجهه ورجفت شفتاه وهو يبعد بيديه التراب المحيط بالحجر. أفلحا أخيراً برفع الحجر الثاني وتبادلا

النظرات في وجهيهما، صامتين من دهشة وفزع: فقد كان هناك تحت الحجر صليب حديديّ موضوع فوق حفرة كما جاء في الحلم. هتف بيلّيا: ألا ترى؟ ألا ترى؟ ... تمكّن بعد جهد كبير من نزع الصليب من الأرض وأدخل ذراعه المرتجف في الحفرة وأخرج منها وعاء كبيراً من حديدٍ صدءٍ. ليس من الممكن وصف انفعال الراعيين وخاصّة انفعال بيلّيا. فلا شكّ أنّ الوعاء كان مليئاً بالذهب واللؤلؤ، ياربيّ يا عزيز، يا ربّي يامقدّس!. استعمل بيلّيا خنجره الكبير الذي يتقلّده رجال سردينيا عادة داخل الحزام على جنوبهم، ومزّق غطاء الوعاء وتذكّر حينها الكلمات الأخيرة التي قالتها السيّدة البيضاء: «عليك أن تصل اليوم بالذات وإلّا فإنّ الشيطان سيستولي على نصيبك». كان الوعاء مليئاً بالفحم والرماد حتّى قعره!...من غير المجدي تكرار تعليقات ودهشة ورعب الراعيين الشابّين. بقيا على اعتقادهما أنّ الكنز موجود وأنّ الشيطان استولى عليه بحسب إعتقادات أهالي سردينيا وخرافاتهم لأنّ بيلّيا لم يأت ليأخذه في اليوم الذي حدّده الشخص الذي خبّأه (أي السيّدة البيضاء، حتماً). تذكّرا عندها المرض الغامض الذي أصاب «حلوتي». لابدّ أنّ روح الجحيم هي التي أمرضت بقرة بيلّيا المفضّلة وذلك لتمنعه من الذهاب إلى محلّة القدّيس ماتّيو.

كان للشابّين خيالاً جامحاً خلّاقاً مثل جميع شباب الجبال الأقوياء في سردينيا، لذلك فقد صدّقا الأمر تصديقاً جازماً، وتابعا بحزن سيرهما وراء الأبقار السارحة، يغمر قلبيهما أسفٌ على الكنز المفقود ورعبٌ من هذه الخوارق، ولم يسرّا لأحد عن هذه المغامرة الغامضة المبهمة، إلى أن حدث بعدها أمرٌ زاد من قناعتهما وتصديقهما بهذه الواقعة.

مرت خمس سنوات. تزوّج بيلّيا وأصبح أباً لطفلة جميلة، كان يعيش بهدوء وطمأنينة لكن بتواضع من وراء مهنة الراعي التي واظب عليها، إلى أن حدث في يوم جميل من أيام أيّار/ مايو 1878وطلب منه راعي الأبرشيّة أن يزوره في بيته. لم تكن هناك من صلات تربط بيلّيا بهذا العجوز لذلك فقد تملّكه الفضول وذهب حالاً إلى بيته ليعرف ما الخبر.

كان راعي الأبرشيّة، ولافائدة من تحديد اسمه، علماً أنّه مات قبل عشر سنين، كان ينتظره في غرفة نومه الصغيرة، النظيفة والمضيئة، أجلسه قرب كرسيّه الأخضر ثمّ ذهب بنفسه ليغلق باب الغرفة المجاورة، بسبب فضوليّة بنات أخته الصغيرات، وخاصّة ماريّا... كفى. لقد أخذ كلّ الاحتياطات الممكنة، ثمّ ذهب الراعي ليجلس على كرسيّه، وبعد أن أحكم وضع نظّارته على عينيه فتح ورقة صفراء قديمة ونشرها على الطاولة.

شعر بيلّيا بنوع غامض من الخشية إزاء كلّ هذه المقدّمات الجليلة التي قام بها راعي الأبرشيّة العجوز، ومالبث أن جفل عندما قال له بكثير من الجدّية وعلى حين غرّة:

– هذه ورقة لها علاقة بك!

بحث الراعي عن جواب مناسب، لكنّه لم يجد من ذلك شيئاً فرأى من الأجدر به أن يلزم الصمت. – أصبح عمري تسعين سنة – تابع راعي الأبرشيّة وهو عجوزٌ بالفعل رغم أنّه لايبدو في ذلك العمر، ذلك وهو يرفع نظّارته ليحدّق ببيلّيا بنظرات مباشرة من عينيه الفاتحتين، اللتين ظهرتا حليبيّتين طيّبتين تحت الحاجبين الأبيضين–

أصبح عمري تسعين سنة يابنيّ وأنا أخدم ربّي منذ سبعين سنة في قريتنا هذه، إذ لم أكن قد بلغت العشرين عندما أقمتُ أوّل قدّاس في عمري.

- ليبلّغك الله المائة عام! قال بيلّيا.

- في نفس العام مات عميد كنيستنا وكان عجوزاً هو أيضاً. قال لي قبل أيّام من تأديه روحه إلى خالقنا القدّوس: «سيجعلونك من كلّ بدّ راعياً للأبرشيّة بعد موتي، لذلك فإنّي أريد أن أعهد إليك بمهمّة خطيرة. اجلس فيجب أن أقصّ عليك أوّلاً هذه القصّة». التزمتُ وسادته وأصبحنا وحيدين فأخبرني عمدتي العجوز المبجّل بهذا الأمر:

- «قبل خمسة وثلاثين أو ستّة وثلاثين سنة، أي حوالي عام 1773 كان هنا في هذه القرية شابّ من عائلة م. وهو مازال حيّاً حتّى هذه الساعة. كان شاباً غنيّاً، جميلاً، خرّيجاً وكاتب عدل، تزوّج قبل فترة من امرأة من مدينة ساسّري التي درس فيها. كانت المرأة تدعى السيّدة ماريّا كروشِه م. وهي ابنة لسيّد من جنوى وسيّدة من سردينيا، غنيّين ومقيمين في ساسّري حيث ولدت المرأة. كان عمرها في حوالي الخامسة والعشرين وكانت رائعة الجمال، بل شديدة الجمال، لها عينان سوداوان وحاجبان معقوفان وشعرها مجدول على أذنيها على الطريقة الفلامينغيّة كما كانت تقول. كانت ترتدي ثياباً فاخرة وعباءة من مخمل أبيض.

ربّما بسبب ثيابها الغريبة التي تجعلها شبيهة بساحرة حوريّة، ولأنّ أباها كان يهوى علوم الفيزياء والفلك وكانت هي تشاركه في

تجاربه العلميّة، لهذا كلّه ذاع صيتٌ شرّير حولها حالما وصلت إلى القرية، حتّى إنّه قيل إنّ السيّدة ماريّا كروتشِه كانت تتفاهم مع الأرواح: إنّ السيّدة ماريّا كروتشِه قد سحرت زوجها دون غافينو وأجبرته على الزواج منها بالقوّة وإلى ماهنالك من هذه الأقاويل الغريبة.

والواقع أنّ دون غافينو كان قبل أن يتزوّجها يعاشر فتاة أخرى في القرية جميلة أيضاً ومن عائلة معروفة، لكنّها فقيرة مثل يسوع المسيح، كانت تدعى روزآنّا. لا بل إنّ روزآنّا بعد أن خُطبت ووُعدتْ بالزواج أنجبتْ لدون غافينو طفلة جميلة. لهذا السبب طُردت الفتاة من بيتها رغم أنّ غافينو أقسم وحلف أنّه سيتزوّجها حالما ينهي دراسته.

لكنّه تعرّف في السنة الأخيرة التي قضاها في ساسّري على السيّدة ماريّا كروتشى: ثمّ رآها وعشقها وطلب يدها وتزوّجها وجاء بها إلى هنا كلّ ذلك في لمحة واحدة. مرضت روزآنّا بسبب الأمر لكنّها لم تفصح عن كلمة تذمّر واحدة. غير أنّه حدث بعد ستة أشهر على زواج دون غافينو، أنّ رجلاً تعرّض له ذات ليلة وهو عائد إلى بيته فأشبعه ضرباً في ظلام الشارع وقتله. جاء دور السيّدة ماريّا كروتشى لتمرض: وما إن تماثلت للشفاء حتّى انهمكت بكلّ قواها في البحث عن قاتل زوجها ونجحت في العثورعليه. كان شابّاً أحبّ روزانّا حبّا جنونيّاً ووعدته بأن تتزوّجه إذا قتل دون غافينو. وجّهت السيّدة ماريّا كروتشى إليه التهمة: فتمّ اعتقاله، لكنّ تمّ إطلاق سراحه لإنعدام أدلّة محسوسة على الجريمة، ذلك رغم النقود وسلطة الأرملة الحسناء.

ومع ذلك فقد كانت السيّدة واثقة من أمرها: وبما أنّ العدالة البشريّة لم تنتقم لها فقد قرّرت أن تنتقم بنفسها.

بعد مرور عام على موت دون غافينو، مات خلاله أبو السيّدة ماريّا كروتشى أيضاً وأورثها ثروة ضخمة. سافرت إلى ساسّري، باعت كلّ شيء ثم عادت إلى هنا. في يوم عيد الفصح تزوّجت روزآنّا. كانت الكنيسة محتشدة، وكان هناك بين الحشد السيّدة ماريّا كروتشى، بملابسها السوداء وعباءتها البيضاء ونصل فضّي في حزامها، كانت راكعة خلف درابزين المذبح.

عندما باركتُ العروسين رأيتُها تنهض واقفة ممتقعة الوجه ملتهبة العينين. كانت روزآنّا وعريسها قد نزلا لتوّهما على درج المذبح عندما اندفعت نحوهما وطعنت الشابّ بنصلها وهي تقول: – أعيد لك دينك!...

تصوّروا الشجار والبلبلة والصراخ بين الناس، وماتبع كلّ ذلك. أمّا روزأنّا فقد أغمي عليها ثم مرضت من الفزع وماتت بعد شهور قليلة وسط عضّات الندم وتأنيب الضمير لأنّ رجلين ماتا بسببها. تمّ اعتقال السيّدة ماريّا كروتشى، ومع أنّ العدالة كانت آنئذ على ماكانت عليه فلم ينفع الذهب ولامناورات أقربائها من أجل تخفيف الحكم.

حكم عليها بالموت شنقاً. وهذا ماحصل.

استدعتني قبل أن تموتْ واعترفت. ثمّ أخبرتني أنّها خبّأت كلّ الذهب الذي جنَتْه من بيع ممتلكاتها في غابة القدّيس ماتّيو قرب الكنيسة وذلك في قارورة من حديد إلى جانب شجرة. وأسرّت لي أنّها تريد أن تترك هذه الثروة للجيل الثالث من نسل روزأنيدّا ودون غافينو وذلك على سبيل تخفيف آثامها أمام رحمة الله. هذه هي وصيّتي – قالت لي وهي تمدّ يدها بخريطة – احفظها وإذا متّ فسلّمها إلى

خلَفِك لكي يعمل بها. وهكذا حتّى الجيل الثالث من نسل روزأنّيدّا. وعلى من يستلم هذه الخريطة أن يعطيها قبل أيّام من التاريخ المرسوم إلى حفيد الطفلة ليرى ماهو فاعله. أعْلِمْهُ أن يذهب في اليوم المحدّد وإلّا فإذا تأخّر ساعة واحدة فسيكون الأمر عبثاً في عبث...

رجوت السيّدة أن تفسّر لي هذه العبارة، لكنها لم ترغب أن تقول شيئاً في هذا الصدد، لذلك فقد ظننتُ في ذلك اليوم وليسامحني الله، أنّ لها شيئاً من الصلة مع عالم ماوراء الطبيعة. خاصّة وأنّي سألتها: – وإذا ماتت روزأنّيدّا دون أن تترك ورثة؟ فأجابتني:

– لا، ستتزوّج وستنجب بنتاً تتزوّج هي الأخرى وتنجب عائلة كبيرة. وسيكون للإبن الكبير أخيراً ابناً يوجد في أسمائه إحدى أسمائي. هذا هو المقدّر...

– وإذا – سألتُها – حاول شخص آخر الاستيلاء على الكنز؟

– عبثاً يفعل! لايستطيع إلّا من أريده أنا أن يعثر عليه، على أن يصل في الوقت المناسب.

لم تقل لي السيّدة ماريّا كروتشى أيّ شيء آخر: أعطتني الخريطة وبقيت تصلّي منذ ذلك الحين وحتّى لحظة موتها. ماتت ميتة الشجعان، ميتة المسيحيّة الصالحة، وبكيتُ عليها كما لو أنّها ابنتي.

حدث كما تنبّأتْ فتزوّجت روزأنّيدّا وأنجبتْ ابنةً مازالت على قيد الحياة، وهي أيضاً فتاة جميلة لابدّ أنّك ومن دون شكّ تعرفها. احتفظتُ كما يوصيني ديني بوصيّة السيّدة ماريّا كروتشى، ولم يخطر ببالي أبداً أن أتأكّد من حقيقة ما أسرّت به إليّ. إنّي أسلّمها الآن لك،

وذلك بحسب ما طلبتْ منّي، فافعل أنت مثلما فعلتُ أنا إذا لم تتمكّن لا سمح الله من معرفة الوريث».

بعد هذا – واصل راعي الأبرشيّة العجوز حديثه – أعطاني سلفي المبجّل الخريطة التي تراها الآن أمامك يا بيلّيا.

مات بعد قليل فاحتفظتُ بدوري لسبعين سنة أخرى بهذا السرّ الثمين الذي لايعرفه أحد.

وكما تنبّأت السيّدة ماريّا كروتشى فقد رأيتُ أنا أيضاً الابنة الجميلة التي أنجبتها روزأنّيدّا وقد تزوّجت وأنجبت عائلة كبيرة. وعندما جاء دور ابنها الكبير تزوّج هو أيضاً وإنّك أنت ابنه يا بيلّيا أو جوفانّي ماريّا وفي اسمك واحد من اسمَيْ السيّدة ماريّا كروتشى. ها قد حان الوقت. إنّي أسلّمك الوصيّة ويمكن لك دون مساعدة أيٍّ كان أن تنفّذها!... – أعتقد أنّ الوقت قد فات! قال بيلّيا الذي كان وجهه يعكس خلال الحديث كلّ ألوان قوس قزح وهو يعضّ أكثر من مرّة على شفتيه كي لايصدر عنه أيّ صوت دهشة وتعجّب قد تعبّر عن قلّة احترام إزاء راعي الأبرشيّة. قاطع الحديث وكرّر: – لقد فات الوقت بالفعل!...

– وكيف لك أن تعرف؟ سأله العجوز وقد غمرته الدهشة.

روى بيلّيا المغامرة التي حدثت معه قبل خمس سنوات.

بدا لراعي الكنيسة أنّه في حلم، فعقّد حاجبيه الأبيضين ووضع نظّارته من جديد وأعاد قراءة الوصيّة للمرة المئة، ثم هتف قائلاً: يا يسوع، يايسوع، ماذا يعني هذا؟ لقد اتبّعتُ كلّ القواعد التي زُوِّدْت

بها، لابدّ أن الشيطان قد تدخّل في الأمر. اسمع الوصيّة: إنّها لم تكتب باللاتينيّة ولا بالإسبانيّة ولا حتّى بالإيطاليّة. إنّها مكتوبة بلهجة سردينيا بالذات، بالّوغودوريزيّة[1]. اقرأها بنفسك....

تناول بيلّيّا الورقة بيد مرتجفة. كانت قطعة ورق مصفرّة، كبيرة، مزيّنة بزخارف مذهّبة. طبع على طرفها خاتم أبي السيّدة ماريّا كروتشى يحمل تاج الفروسيّة وثلاثة حروف د.ي.م. مجدولة حول سيف صغير أو خنجر: مرسومة كلّها بذهب عتيق، باهت بفعل الزمن.

كانت الوصيّة الغريبة مكتوبة بالفعل بالّوغودوريزيّة، بخطّ قديم، ضخم، متعثّر لكنّه مقروء. قرأ بيلّيّا بصوت مرتفع، مهجّئاً الحروف ومرتجفاً بعض الشيء:

جاء في الوصيّة:

«أنا الموقّعة أدناه السيّدة ماريّا كروتشى م. أرملة دون غافينو م. أصرّح أنّي تركت وصيّةً لحفيد ابنة روزآنّيده ر. ابنة روزأنّا ر. وزوجي الراحل، الكنز المخبّأ تحت أكبر شجرة في غابة القدّيس ماتّيو، وهي أوّل شجرة على بعد عشر خطوات من الجدول، على أن يذهب لأخذه في يوم 10 أيّار/ مايو 1878 وإلّا فإنّه لن يجد شيئاً، وعلى أن يصلّي ويقيم القداديس على روحي. السيّدة ماريّا كروتشى م. أرملة دون غافينو م.».

سيطول الحديث إذا حكينا عن التعليقات والثرثرات التي صدرت عن بيلّيّا وراعي الأبرشيّة. زيادة في التأكيد عاد بيلّيّا في العشرين من

(1) واحدة من لهجات سردينيا

أيّار نحو القدّيس ماتّيو ونبش التراب تحت جميع الأشجار، لكنّه لم يجد شيئاً.

حاول راعي الأبرشيّة أن يفسّر هذا اللغز الشيطانيّ فأرسل الوصيّة لكلّ أصدقائه المثقّفين، علمانيّين وديّينين، لكنّ أحداً لم يعرف شيئاً.

في نهاية الأمر وصلت الورقة الغريبة إلى يد شابّ من القرية، حفيد العمّ سالفاتورى وكان يدرس في إحدى مدارس نوّرو، وكانت له بين مواهبه العديدة موهبة فكّ الحروف ومعرفة الخطوط. وهكذا فقد استطاع هذا الشابّ تفسير اللغز. ذلك أنّ آخر رقم 8 في 1878 الوارد في الوصيّة لم يكن رقم 8 بل 3. لأنّ الشرطات الأماميّة كانت مكتوبة بشكل جعلها تشبه الثمانية، وبهذا فإنّ راعي الأبرشيّة العجوز أخطأ في خمس سنين قبل أن يعطي الوصيّة لبيلّيّا![1]

(1) تروى هذه الحكاية بشيء من التصرّف في مرتفعات سردينيا أيضاً، ويبدو أنّ لها أسساً ليست كلّها خرّافيّة. (المؤلّفة)

في الحظيرة

تقع حظيرة العمّ نانّيدّو في ناحية تريزنوراغيزى أي على مسافة ساعتين من نوّرو، في مكان جميل يبقى فيه العشب أخضر حتّى شهر حزيران/ يونيو. كانت زوجته أو ابنتهما اللطيفة مانزيلا[1] تذهبان كلّ يومين أو ثلاثة أيّام من نوّرو إلى حظيرة العمّ نانّيدّو في رحلة على الأقدام لتتمتّعا بيوم مشمس ولتجلبا بعض الطعام للراعي العجوز. أمّا بوستياندّو فكان يصحب عادة المرأتين في الطريق، كان هو أصغر الأفراد في عائلة فينوو ولايزيد طوله عن ثلاثة أصابع، له وجهٌ برونزيّ مسودّ لطيف خبيث، عيناه كبيرتان تكادان تلمسان أذنيه، وكان الجميع بمن فيهم أمّه يسمّونه جراد. غير أنّه كان يركب الفرس، وكانت هذه الفرس صغيرةً وليست أكبر من بوستياندّو بكثير، بل كانت عجوزاً عقيم ذات شعر رماديّ طويل تنمّ عيناها عن حزن عميق، لكنّها كانت تشكّل جزءاً هامّاً من عائلة فينوو، وشخصيّة هامّة من شخصيّاتها. كان اسمها جرادة، ومن هنا لقّبوا بوستياندّو بالجراد. والواقع أنّ جرادة وجراد قضيا حياتهما سويّة. فكان الراعي الصغير يُرى كلّ مساء عند الغروب وكلّ صباح عند الفجر وهو يخبّ مسروراً على فرسه الغارقة في تأمّلاتها وذلك عبر الطريق والدروب المقفرة التي تصل نوّرو بتريزنوراغيزى، أو عبر منحدرات مارّيري الصخريّة، التي كان العمّ نانّيدّو يهبط منها خلال المواسم الجافّة. ما إن كبر جراد حتّى

(1) أي ماريا آنجلا في اللهجة المحلّيّة.

كفّ العمّ نانّيدّو عن مفارقة الحظيرة: وبدأ الصغير يذهب ويجيئ ليأتي بالطعام والحليب والقشدة من نوّرو إلى الحظيرة ويرجع بالجبن من الحظيرة إلى نوّرو. كانت الفرس هي وسيلة النقل بالطبع: كان عليها سرج صغير قديم من الجلد الأسود والخشب، وكان الخرج رماديّاً بالياً حتّى ليخيّل للمرء أنّه بضعةٌ من جلدها. كانت جرادة تخبّ بروعة وتتسلّق بعيون مغمضة الدروب المليئة بالعلّيق وغير ذلك من الأعشاب. عندما لم يكن الخرج ثقيلاً جدّاً كان الصغير يحمّل على ظهر جرادة أو أمامها حزمة معتبرة من الحطب، من أغصان العرعر، أو أغصان صمغيّات متخشّبة، أو أنّه كان يحمل إلى البيت على اقلّ تقدير خمس أو ستّ مكانس عطريّة تترك روائح طيّبة خلف خطى الفرس الغريبة. كانت العمّة فينتورا\ أو مانزيلا الجميلة تذهبان كلّ يومين أو ثلاثة أو مرّة في الأسبوع على أقلّ تقدير لزيارة العمّ نانّيدّو الذي كلّما كبر في السنّ كان يزداد شبهاً بالخنزير البرّيّ. وكانت هذه الزيارة فرصة لهما تتمتّعان فيها أيضاً بشيء من شمس السهل. كانتا تأتيان بأشياء للخياطة أو ببعض الملابس يغسلانها في الجدول الذي يعبر الأرض ويركد في كثير من النقاط ليشكّل مستنقعات خضراء صغيرة تحيط بها نباتات القصب والنعناع البري الطازج. بل إنّ العمّة فينتورا استولت مؤخّراً على قطعة أرض تبقى رطبة على الدوام وغرست فيها كميّات كبيرة من البطاطا والبندورة والفاصولياء وبدأت تعتني بها بمحبّة وشغف شديد. في بعض المرّات كانت المرأتان تنامان أيضاً في الحظيرة: لا بل إنّ أعراض المرض كانت تظهر على وجه العمّة فينتورا إذا مرّت عدّة أيّام من غير أن تزور ذلك المكان المبارك وذلك منذ أن اخترعت لنفسها تلك المهنة في الفلاحة. أمّا مانزيلا فكانت

تستشيط غضباً وتوبّخها لأنّها تركت أشغال البيت بعد أن تولّعت بتلك الهواية. لكنّ العمّة فينتورا كانت تتركها تهذي على هواها وتعود رغم هذا إلى هناك لتتمتّع بزرعها المزدهر. ذات يوم هدّدتها الفتاة بأن تقلع كلّ الزرع، لذلك فقد لجأت العمّة فينتورا إلى بيدرو شيسّا وهو راع آخر كان يرعى إلى جانب العمّ نانّيدّو في السهل الواسع ويبيت خلال الليل في نفس الكوخ. توسّلت إليه أن يراقب مانزيلا عندما تأتي إلى المكان. فقال لها بيدرو شيسّا: – ولماذا لاتطلبي هذا من زوجك؟ – هاه! لأنّه ينفّذ كلّ مايقوله له الأولاد، وإذا رأى أنّ مانزيلا تقلع زرعي فإنّه سيكتفي بالضحك. حسناً، سأراقب الزرع إذن. وإذا رأيتُها...ماذا عليّ أن أفعل؟ – عليك بالصفع، على أن لا يراك نانّيدّو.

ذات صباح كان بوستياندّو ومانزيلا يخبّان مرحيْن باتّجاه الحظيرة. قلنا إنّهما يخبّان تجاوزاً، لأنّ الوحيد الذي كان يخبّ على فرسه هو بوستياندّو. فالصغير لم يكن يتمتّع بأيّ من مشاعر الفروسيّة، لذلك فلم يكن ليتنحّى عن مكانه لأيّ كان ولا حتّى للنساء. لكنّ مانزيلا كانت أسرع من جرادة في سيرها، وكانت على استعداد لعبور سردينيا كلّها على الأقدام. تقدّم الولدان وهما يثرثران متضاحكين وسارا شيئاً فشيئاً تحت شمس حارقة على الطريق الأبيض وعبر السهول المخضرّة بالنباتات الغضّة والمغطّاة بالأقحوان وغيره من أزهار الأرض. خلعت مانزيلا نعليها وكانت تطلق من حين لآخر وبشيء من المرح بعض اللعنات، خاصّة عندما كانت أشواك ناعمة من التي تنبت تحت التبن تخز ساقيها وهي تسير بقدمين عاريتين بين الأعشاب النديّة. وليس ألطف من مانزيلا عندما كانت تلفظ أسماء الشياطين وهي تلعنهم أو عندما كانت تكشّر نكايةً. كانت الطفلة بنتاً حقيقيّة من بنات العامّة في

المنطقة، مليئة بالخشونة وبالطلاوة العفويّة والإغراءات الغريبة. كانت تبوح بكلّ مايدور في رأسها وتكذب بقدر كبير من اللامبالاة وتلعن حتّى القدّيسين.

ومع هذا فقد كانت تقيّة وكثيراً ماكانت تذهب للإعتراف في الكنيسة بل كانت تتمنّى الموت بشدّة عندما تكون سيّئة المزاج. لكنها لا تمتنع أبداً عن إطلاق اللعنات في كلّ حين رغم الوشاح والأيقونة الصغيرة حول رقبتها، وهما هديّة العم نانّيدو جاء بهما من روما – أجل من روما بالذات عندما ذهب الى هناك كشاهد في قضيّة سردينيا الشهيرة فقدّمهما له راهبٌ ظنَّ أنّه البابا بعينه. كانت مانزيلا في الثامنة عشرة من عمرها. لكنّها لم تتخلّ عن إدّعاء السادسة عشرة وكانت تبرّر إدّعاءها بأعوام بوستياندّو الثلاثة عشر، رغم أنّها بلغت بالفعل الثامنة عشرة. كانت رقيقة الجسم صغيرة، شعرها أسود جمعته في فرقين ينسدل أخفضهما على جبهتها، وقد منحت الشمس والهواء بشرتها البيضاء لوناً ذهبيّاً حارّاً بل أشقر تقريباً فأصبحت أشبه بالأنواع اللاتينيّة القريبة من السمراء.

كان هناك في عائلة فينوو اختصاص بالعيون الكبيرة، لذلك كانت عينا مانزيلا كبيرتين لا بل واسعتين جدّاً. كانتا عينان غريبتين بلون فاتح نوعاً ما لكنّه ليس رماديّاً، وكانتا مفعمتين ببراءة زائفة وابتسامات محبّبة. ممّا جعل مانزيلا تستغلّهما على الدوام لتملأهما لطفاً أو رعباً أو صمتاً مطبقاً وذلك حسبما ترغب وتشتهي، وعندما تغضب كانت تغلقهما شيئاً ما لأنّها تعرف أنّهما يصبحان ساعتها رهيبتين. ومع هذا كلّه فهي لم تكن خبيثة: كانت تظنّ أنّها كذلك لكنّها لم تكن، كما لم تكن شرّيرة رغم أنّ بوستياندّو كان يكرّر عليها هذا في كلّ لحظة.

وقد فعل هذا مرّة أخرى عندما تشاجرا ذلك الصباح في الطريق، فكرّر قائلاً: إنّك شرّيرة! لم تتحمّل مانزيلا هذا فضربت ظهر فرسه فشرعت هذه تجري بجنون فوق أعشاب الطريق. لكنّ بوستياندّو صمد وما إن تمكّن من لجم الحيوان حتّى التفت خلفه وقرقع بضحكته وهو يصرخ على أخته: – ملعونة، ملعونة! فأسرعت الصبيّة وفي نيّتها محاجرته، لكنّ رجلاً ظهر في تلك اللحظة وسط الخضرة وأوقفها وهو يصيح: – آه، هل مانزيلا في هذه الأرجاء؟ كان ذلك بيترو شيسّا الذي كان في طريقه نحو نوّرو وكان يتابع الولدين منذ أكثر من نصف ساعة. – أجل، في هذه الأرجاء! أجابت مانزيلا بشيء من التكشير. – لم أرك منذ فترة في هذه الأرجاء! – أجل، بالفعل، منذ أوّل أمس! وتابعا الطريق سويّة. كان بوستياندّو يتقدّمهما وهو يخشى محاجرة أخته، وكان يغنّي بلهجته المحلّية. كان صوته أجشّاً لكنّه موزون، وكان يتلاشى بعيداً عبر الكتل التي تغلق السهل بين طنين الذباب المختبئ في أكوام التبن المرفوعة تحت الشمس. كان بيترو ومانزيلا يتبعونه. روت الفتاة له كلّ الأعمال القبيحة التي يقوم بها بوستياندّو. لم يعد في امكانها تحمّله، ولابدّ أن تمزّقه إرباً ما إن يقع تحت أظافرها. غير أنّ بيردوو لم يكن يصغي إليها. كان يحدّق بالأفق القريب المغلق بمرتفعات المنطقة التي توجد فيها حظيرته وحظيرة العمّ نانّيدّو، على خطّ السماء الزرقاء العميقة القاتمة لدرجة بدت فيها شديدة الحزن، وبدا أنّ بيردوو قد غرق في حلم عميق. كان مهيّماً نوعاً ما بمانزيلا. فمنذ طلبت منه العمّة فينتورا أن يراقب الطفلة، لم يشعر بلحظة واحدة من الراحة والاطمئنان. لقد انطبعت صورتها على شبكيّة عينيه فكان يراها في كل مكان: في خضرة السهل المترامية، في السماء الزرقاء الواسعة، في الليل وفي

النهار. أمّا في الليل عندما كان القطيع يسرح عبر بقع العشب الهادئة ليملأ الصمت الحليبيّ الذي يسود المكان بموسيقى أجراسه الرتيبة، حينها كانت تغزو بيردوو الصامت الوسن موجة من الحزن العميق وكان يرى مانزيلا في كلّ نقطة من نقاط المكان، بين كل مايشعّ تحت القمر، في الكوخ، في الزرع وبين الشجر. لقد هام بها منذ أن عرفها، لكن الآن، الآن وصل به الحبّ إلى درجة الجنون، ولم يبق عليه إلّا القليل حتّى ينفجر. قام بيردوو بحساباته فقرّر أن يشرح الأمر لمانزيلا وأن يطلبها زوجة له. ماذا ينقصه؟ كان راعياً جيّداً، شابّاً فتيّاً، قويّاً، جميلاً. يمتلك قطيعاً وبعض المراعي، وهو قادر على إنشاء بيت دون أن يخشى شيئاً. ومع أنّ الطفلة شابّة صغيرة جدّاً، غرّة وعديمة الخبرة، فإنّ الأمر لم يكن يهمّه في شيء. يمكن له أن ينتظر سنتين أو ثلاثة قبل أن يتزوّجا، المهّم هو أن يكتسب قلبها. عندما وجد بيردوو نفسه وحيداً مع الفتاة في ذلك الصباح بدأ يفكّر ويعيد التفكير في كيفيّة البوح بما في نفسه، لكنّ الكلام أبى أن يخرج من بين شفتيه، بينما كان قلبه يخفق بقوّة وكاد أن يتحطّم تحت سترته المخمليّة. شعر الفتى بالرغبة في مقاطعة حديثها وهي تستغيب بوستانيدّو ليصرخ بصوت عال بالسرّ الذي يعتمل في قلبه، لكن ما إن كان يحاول فتح شفتيه حتّى كان نوع من الخدر الحارق يغزو رأسه ويحجب البصر في عينيه ويكاد أن يوقعه على الأرض. كان عليه أن يقرّر في نهاية الأمر. عندما ظهر في الأفق البعيد الكوخ وخيمة الأغصان الجافّة التي يستظلّ الرعاة تحتها، أطلق بوستانيدّو آخر مقطع من أغنيته وأطلق العنان لفرسه نحو الحظيرة. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء وغطّت أشعتّها السهل كلّه، بينما بدأ الدم يغلي ويتموّج في عروقه ليشتعل وجهه

ورأسه. أمّا مانزيلا فقد رفعت منديلها على عينيها وتابعت سيرها بهدوء بوجهها المذهّب الشبيه بصورة عذراء صغيرة من لوحات القرن الرابع عشر اللاتينيّة. كان ضوء السهوب الفسيحة الساطع ينعكس في عينيها الواسعتين ليعطيهما لوناً رماديّاً شفّافاً. عندما ركّز بيردوو نظره عليها شعر برغبة قاتلة في أن يغمرها بقبلاته بعد أن يحتضنها بين ذراعيه كما لو أنّها حَمَلٌ أبيض صغير خائف. في النهاية توقّف فجأة في ظلّ مرتفعٍ يخفي الكوخ ويتلوّى تحته دربٌ صغير بين الأعشاب، وقال لها: مانزِه، يجب أن أخبركِ بأمر. وبما أنّه بقي طيلة الطريق صامتاً فإن الفتاة نظرت إليه بدهشة وتوقّفت هي أيضاً في ذلك الظلّ. كان الجوّ ساحراً هناك. كانت تتدلّى منهمرة من خلال الصخور الضخمة المتراكمة عناقيدٌ كبيرةٌ لشجيرات خضراء ونباتات زعرور وآكاسيا مزهرة. كما كانت تفوح عطور الورود البرية الشفّافة التي تكاد تميل إلى ألوان العنبر. وكان يسمع خرير جدول يعبر الدرب قبل أن يغيب بين أغصان الآكاسيا العالية المزهرة، التي مازالت مانزيلا تحمل في يدها عرقاً طويلاً ضخماً منها. امتقع على حين غرّة وجه بيردوو ليصبح مثل أزهار الآكاسيا فنظرت إليه الطفلة نظرة خوف وفزع ظنّاً منها أنّه شعر بألم ما. – ماذا حلّ بك؟ سألته. فبدأ يقول: – هل تحبّين أحداً ما؟...– لا..لكن ماذا يهمّك أنت من الأمر؟... قالت مانزيلا وهي تنفجر في ضحكة صاخبة. لكنّها فهمت بدون كلمات أخرى ما الذي يعنيه بيردوو بكلامه، فضحكت... وضحكت...

ضحكت لأنّها لم تكن تشعر بأيّ شكّ حول هذا الأمر، لأنّها لم تفكّر البتّة باحتمال أيّ حبٍّ قد يجمع بينها وبين هذا الراعي الشابّ. تركها تضحك ثمّ استأنف ليفصح بالتدريج عن خفايا قلبه،

أو بالأحرى أنّه استأنف بعد أن تشجّع وحميت جوارحه: – هناك فتى يحبّك وسيكون سعيداً إذا تزوّجك...هذا إذا كنت تظنّين أنّك ستقبلنيه يامانزيلا..... – إنّك لأنتَ هو، أليس صحيحاً؟ سألته بصراحة وهي تنظر في عينيه وتضرب مازحةً بالغصن على كتفيه. تنهّد بيترو بينما برقت عيناه السوداوتان. آه، لابدّ أنّ مانزيلا تحبّه إذن؟ أجل، وإلّا لما تصرّفت بهذه الطريقة. بعد كثير من القلق وكثير من الخشية شعر بيردوو بسعادة عارمة تغمر قلبه، لم يكن ينتظر مثل هذه السعادة المشرقة فانقطعت أنفاسه وتوقّف تفكيره وغاب عن وعيه بنفسه. ثم أطلق على حين غرّة صرخة دوّت في السهل كلّه. فما الذي حدث؟ شيء بسيط. فقد حاول بيردوو بصورة عفويّة وفي غمرة فرحه أن يعانق مانزيلا، لكنّ الطفلة التي لم تفهم الأمر بنفس الطريقة تراجعت إلى الوراء لتلوّح بالغصن بين يديها وتضرب وجهه بعنف شديد. كانت ضربة بل لسعة رهيبة لاتصدّق. لقد تمزّق جلد الشابّ الأسمر وكأنّ شظايا صخرة قد أصابته، وبدأ ينزف. لكنّ الألم الحادّ، والجرح الحقيقي كان ذاك الذي أصاب عينه. شعر بيردو أنّه يحتضر، ولو كان من فعل هذا معه شخص آخر غير مانزيلا لجرى نحو الكوخ ليتناول بندقيّته أو مسدّسه. لكن ماذا بوسعه أن يفعل معها؟ بعد أن زالت آلامه السابقة انحنى على الجدول بدون أن ينبس ببنت شفة وغسل وجهه ثمّ أخذ من جيبه منديلاً وجفّف الدم الذي كان ينزف ويجري على ذقنه وقميصه وسترته. تشنّجنّت مانزيلا وبدأت ترتجف ظنّاً منها أنّها ارتكبت جريمة، وجاء دورها ليمتقع وجهها ويصبح مثل أزهار الآكاسيا. فكّرت أوّل ما فكّرت بالهرب، لكنّها عندما وجدت أنّ بيردو لا يشتكي، اقتربت منه وبدأت تطلب العفو والسماح. ثمّ مدّت يدها

نحوه وطلبت منه أن يريها الجرح: – أرني قليلاً ماذا فعلتُ بك. ماذا فعلت بك؟ أرادت أن تعاين الجرح، لكنّ بيردوو دفعها عنه دون أن يتفوّه بكلمة. تابعت مانزيلا مراقبتها له وهي تفرك يديها من اليأس. جرى بوستيانّدو ليرى ما الذي جرى. – لاشيء! أجاب بيردوو، لقد سقطتُ وجرحتُ في هذا المكان...ثمّ تابع سيره وهو يعرض جرحه على الصغير. تبعتهما مانزيلا. كفّت عن الضحك، ولم يكن بوسعها أن تذكر في أيّ عالم هي. لقد رأت مع الدم دموعاً تجري من عينيه، من عينيّ المسكين بيردوو شيسنا!

حدث عندها أمرٌ غريب. منذ ذلك اليوم انقلب بيردوو ليصبح عنيفاً شرساً مثل العمّ نانّيدّو. انقطع عن المجيئ إلى نوّرو، كما انقطع عن الكلام والغناء والضحك. بل إنّه لم يعد يحلم أيضاً خلال ليالي حزيران الحارّة المرصّعة بالنجوم، عندما تفوح عبر سكون السهول عطور أولى الأقصاب والنباتات المحمرّة بين أكوام التبن الجافّة. لم يعد يرى مانزيلا ماثلة أمامه، أمّا رنين أجراس القطيع السارح فكانت لاتذكّره إلّا بذكريات أليمة والندم على الأحلام الضائعة. ولم يكن يعير الطفلة أيّة نظرة عندما كانت تأتي إلى الحظيرة. بوسعها الآن أن تقطع ما يحلو لها من خضار العمّة فينتورا، فهو لن يتحرّك من مكانه تحت المظلّة أو في الكوخ. لا بل إنّه كان يبتعد عن المكان عندما كان يلمح طرف منديل الفتاة الغامق وقميصها الأحمر، كان يبتعد ليغيب بين كتل الأعشاب، كأنّه لصّ أو قاطع طريق. هذا رغم أنّ مانزيلا بدأت تُظْهر له كلّ أنواع اللطف، وبدأت تناديه «الرفيق بيردوو»، بل كانت تسأل عنه كلّ يوم أخاها بوستيانيدّو. كما أنّها زادت من زياراتها إلى الحظيرة وبدأت تهتمّ بكلّ شيء. كانت تبقى داخل الكوخ عندما كان بيردوو

يعكف على صنع الجبنة، وكانت تساعده في تحمية الأحجار لتجبين الحليب، ولم تكن تترك فرصة دون أن تذكّره بمغامرة الآكاسيا. لكنّه كان يبقى صامتاً أخرس. يتركها وشأنها دون أن يجيب على سؤال أو يبدي أيّة ملاحظة أو يعيرها التفاتة. فماذا كان يجري بين هذين الشخصين من أصحاب الطباع الغريبة؟ لا شيء مدهش، أو بالأحرى، شيء مدهش واحد: مأساة قلبيّة باطنيّة شديدة الأهميّة. كانت مانزيلا تحبّ بيردوو حبّاً شديداً، لكن بيردوو لم يعد يحبّها. كانت مانزيلا تتقرّب منه، لكنّه لم يكن يهتمّ بالأمر، لا بل كان يشعر نحوها بنوع من القرف الشديد الممزوج بمتعة لاذعة، بمتعة الرغبة في الانتقام. آه، لقد لسعت له وجهه...حسناً، كان هذا من حقّها كفتاة شريفة، لكنّه سيعمل الآن على تمزيق قلبها حتّى يدمى كما أدمت هي وجهه. وكان ينتظر اللحظة المناسبة. هذا بينما كانت مانزيلا تذوب من شدّة الحبّ والندم. كانت تتذكر في كلّ لحظة تلك الدموع التي رأتها تجري على وجنتي الراعي القويّ – الذي لم يبكِ على الأرجح أبداً طيلة حياته. كان هذا المنظر المؤلم يتكرّر كلّ ليلة في أحلامها. لذلك فقد انقلبت تقيّة أكثر من أيّ وقت مضى، وكانت تصلّي على الدوام وتحجّ إلى كنائس فالفيردِه والمونِته لتطلب من سيدة السموات الطيبة أن يحلّ السلام في روحها المسكينة. لكنّ السلام لم يأتِ. لم يرجع أبداً. انطفأت الابتسامة على وجهها الجميل المذهّب وكاد يصبح قبيحاً في امتقاع الأحزان التي كانت تجلّله بألوان الجيف الترابيّة. كما اسودّت عيناها وغطّاهما برقع الأحزان الغامضة. وقد لاحظ الجميع هذا التغيير الذي أصابها، حتّى أنّ العمّة فينتورا كانت تقسم بأنّها قد سُحرت. وقد تكّرر هذا القول حتّى أنّ الصبيّة صدّقته هي أيضاً وكان

عليها أن تخضع لعلاج هذا المرض ذي النوع الخاصّ. وقد ركّبت دواء السحر هذا طبيبة الجوار أي العمّة بيبا فرونزا. أوّل مافعلته هذه أنّها قاست مانزيلا طولاً وعرضاً فتبيّن لها بكلّ وضوح أنّ الطفلة قد سُحرت منذ ثلاثة أشهر. وهنا أوقدت العمّة ناراً رمت فيها الخيط الذي قاست به مانزيلا فضلاً عن شيء من إكليل الجبل وريش بعض الأعشاب وغير ذلك من المكوّنات السحريّة، ثمّ طلبت من المريضة أن تقفز فوق النار ثلاث مرّات بينما كانت هي تتلو أدعيتها الغامضة. كرّرت هذا العلاج الخاص عدّة مرّات حتّى تهيّأ للعمّة بيبا أنّ مانزيلا قد شفيت. ولكن هيهات! لأنّ الفتاة كانت ومازالت مهيّمة بيبردوو. كانت كالمجنونة لاتجد الأمان والاطمئنان حيثما حلّت، إلّا هناك، هناك، في تريزنوراغيزي.

كان بيردوو يجلس في حرارة الشمس الملتهبة فوق التبن الأشقر، بين أغصان الأكاسيا والأشواك الجافة والأقصاب الذهبيّة المتألّقة، ولم يكن يضحك أو يغنّي، أطلق لحيته فأصبح أجمل من أي وقت مضى وخاصّة وهو يقطّب حاجبيه ويغلق شفتيه. لاحظ حتّى العمّ نانّيدّو جنون مانزيلا، ومع أنّه كان يحبّها ويعطف عليها بما يسمح به طبعه القاسي المتوحّش، فإنّه كان يستاء من سلوكها. وما العمل؟ هل يحرمها من الذهاب إلى الحظيرة؟ لا، فهو أيضاً لايمكنه أن يبقى يومين دون أن يراها. فكّر ثمّ فكّر قبل أن يقرّر تغيير مكان المرعى، على أن يترك كلّ مراعي تريزنوراغيزي لبيردوو لقاء أجر معيّن. دبّر الأمور خلسة وعندما انتهى كلّ شيء قال في ذات ليلة من ليالي آب لمانزيلا: – أخبري أمّك أنّي سأغيّر المرعى غداً وسأنقل القطيع إلى الجبل. وبيردوو أيضاً؟ سألته بقلق. – لا، فهو سيبقى هنا طيلة

الخريف...لم تعقّب هي بكلمة، لكنّ اليأس الذي ألمّ بها حملها على اتّخاذ قرار كبير، فذهبت بحثاً عن الفتى. لم تجده في أيّ مكان. بدا وكأنّ السهل نائم وسط سكون الظهيرة الحارق. أمّا الأغنام فقد غرقت في سباتها تحت الظلّ، بينما تحوّلت ألوان المكان لتصبح على حدوده خطوطاً صفراء تختلط مع خطّ الأفق الرماديّ المزرقّ الباهت. بعد عديد من المحاولات لمحت مانزيلا بيردوو في مكان بعيد. لقد بدا تحت الشمس الساطعة كأنّه بقعة سوداء بعيدة، لكن سرعان مالحقت به الفتاة واقتربت منه. كانت ترتعش مثلما تهتزّ أوراق الشجر: كان الحرّ والجريُ والانفعال تضفي على وجهها وشفتيها لوناً قرمزيّاً. كانت عيناها تنمّان عن الخوف، بينما تناثر شعرها الأشعث تحت منديلها الذي انحلّ وانزلق من على رأسها، وهكذا بدت جميلة من جديد، كما كانت قبل أشهر عديدة، لا بل أكثر جمالاً من ذي قبل، حتّى أنّ بيردوو جفل وهو ينظر إليها. ومالبث أن سألها: – حسناً، لماذا تجرين على هذه الطريقة كالمجانين. ماذا حدث؟ – أحقّا أنّ أبي سيذهب وتبقى أنت هنا؟ سألته وهي تلهث. فأجابها ببرودة: – هكذا يبدو! – إنّك ستذهب إذن... ستذهب دون أن تخبرني من هو ذلك الفتى الذي...لم يتركها تكمل حديثها. بل صرخ بصوت انفجر فيه الغضب والحبّ والبغضاء: – كنتُ أنا! انهارت مانزيلا. لقد فقدت الآن كلّ أمل، رأت الآن بأمّ عينيها أنّ بيردوو يكرهها حتّى الموت. آه، لايمكن لها أن تحتمل، لايمكن لها أن تحتمل! فسقطت على الأرض، بل على الحجارة وسط شمس آب/آغسطس الحارقة، وانفجرت في البكاء. تغيّر لون بيردوو لمرأى ذلك المنظر وشعر بإحساس لم يكن يتوقّعه حين أراد أن ينتقم. تصاعدت الدماء إلى وجهه، ومع هذا

فإنّه لم يجد إزاء آلام الصبيّة سوى سؤال غبيّ طرحه: – أيّ شيطان حلّ بك يا مانزيلا؟ لكنّها لم تجب. فابتعد بيردوو بسرعة وعاد من جديد مجرّد بقعة سوداء سرعان ما تلاشت في الأفق البعيد، في وهج السهل الصامت. أمّا مانزيلا فواصلت البكاء على مصيبتها وعلى حبّها اليائس، لكنّها ما إن تعبت من البكاء حتّى عادت نحو الكوخ، فأخذها العمّ نانّيدّو جانباً تحت خيمة الأغصان الجافّة، وقال لها:

– مانزِه، إنّ بيردوو شيسّا يريدكِ زوجةً له!

الأب

انتصب ووقف بالقرب من طرف الطريق، فوق المنحدر المعشوشب. وقف جورجي بريدا الملقّب تيليغيرتا هناك لأكثر من ربع ساعة بانتظار حبيبته الصغيرة نانيا ابنة المسؤول عن صيانة الطريق. كانا يتبادلان مشاعر الحبّ منذ عشرين يوماً، أي منذ أن تعارفا على بعضهما. كانت نانيا تمرّ بذلك الطريق كلّ يوم في حوالي الثانية وذلك لتنقل الماء من النهر إلى دار الصيانة[1]. وكان جورجي ينتظرها على المنحدر متصنّعاً أنّه يراقب الأغنام السارحة وهي ترعى بين الأعشاب في غابة السنديان. ما إن تظهر نانيا وراء وهج الطريق الموحش، حتّى كان جورجي ينزل من مكان المراقبة ويذهب إلى الظلّ وراء المنحدر حيث تلحق به نانيا وعلى رأسها جرّتها الفخّارية الطويلة ذات الطراز الإتروسكاني[2]، قلبها مفعمٌ بالحبّ لكنّه مليئٌ أيضاً بمشاعر الخوف. لأنّ أباها لابدّ أن يحطّم عظامها إذا اكتشف أنّها واقعة في حبّ جورجي. ومع أنّ العمّ غافينوو فالديدا كان في تلك الساعة إمّا غارقاً في قيلولته المعتادة أو مستغرقاً في زراعة الحقل الصغيرالمجاور

(1) كانت دور الصيانة في إيطاليا Le case cantoniere أبنية من ملكية هيئة الطرقات مبنية على الطرق الكبيرة خارج المدن أو قرب السكك الحديدية ويسكن فيها عمال الصيانة مع عائلاتهم ليكونوا في موقع العمل بصورة دائمة. وكاد استعمالها لهذه الأغراض ينحسر بشكل علم.

(2) الفن الاتروسكاني أي arte etrusca هي فن الشعب الذي كان يقطن منطقة إيتروريا الواقعة وسط إيطاليا خلال القرن الثامن قبل المسيح.

لبيت الصيانة، إلّا أنّها لم تكن مطمئنّة. كان الفتيَان يمكثان حوالي خمس أو ستّ دقائق وهما يثرثران ويلتهمان بعضهما بالعيون دون أن يلمس أحدهما حتّى إصبعاً من أصابع الآخر، ثمّ كانت نانّينا[1] تواصل طريقها وهي غارقة في أفكارها بينما يعود جورجي إلى الغابة وهو يتنهّد على وقع أحزانه. كان يشعر طبعاً بالفخر والسعادة لأنّ له حبيبة له لوحده، هناك، بعيداً عن البلدة، في معزل عن الجميع، لكنّ سعادته لم تكتمل أبداً. فهناك أوّلاً الخوف من العمّ غافينوو الذي لم يكن ليقبل أن يزوّج نانّينا بشقيّ مثل جورجي، ثمّ... وهناك كثير من ثمّ وثمّ...أخيراً. كفى، على كلٍّ كان جورجي سيقتنع بالحصول على قبلة على الأقلّ من نانّينا، وذلك قبل أن يساق إلى الجنديّة وغير ذلك من المؤرّقات. لكن المشكلة التي كان يتنهّد دائماً بسببها هي أنّ الصغيرة لم تكن تنوي البتّة أن تقبّله ولم يكن هو يجرؤ على لمس حتّى طرف تنّورتها. لكنّ جورجي صمّم في ذلك اليوم على معانقتها وهو يقول لها: – إذا لم يقبّل العشّاق بعضهم فمن الذي يقبّل إذن؟

غير أنّ نانيا لم تظهر في ذلك اليوم بالذات. وبدأ جورجي يضطرب وهو مازال منتصباً على المنحدر. خاصّة وأنّ ظلّ العصا الطويلة التي يحملها في يده والمعكوس على الأرض أفهمه أنّ الوقت قد تجاوز الثانية. كان جورجي بريدا، المكنّى عادة باسم تيليغيرتا، من بلدة بيتّي وكان من الممكن أن يكون قد بلغ التاسعة عشرة من عمره. كان، وبمشاركة راعٍ آخر عجوز من منطقة النوريزه، يرعى أغنام مَلّاك غنيّ من نفس المنطقة. وكانت المراعي التي يعملان فيها تمتدّ بالقرب

(1) تصغير نانيا

من مراكز صيانة طريق بيتّي.

من الممكن أن يقال إنّ جورجي فتى جميل – وهو يظنّ أنّه رجل ناضج – طويل مفتول العضلات، رغم أنّه رقيق الجسم، شعره أسود حالك السواد وشكله كامل شبيه بأشكال أفضل المنحوتات اليونانيّة التي لايمكن أن نجد مثيلاً لها إلّا في أنحاء بيتّي وأورونه. أمّا بشرته فكانت مسودّة لوحّتها الشمس وقسّاها البرد، غير أن تقاسيم فمه الرائعة الجمال وذي الشفتين الرقيقتين والأسنان البيضاء الناصعة لاتخفّف من قسوة عينيه السودواين المبرقعتين القاتمتين. نشأ جورجي في نوّرو وكان يتكلّم بلهجتها مخلوطةً بلفظ موطنه، كما بقي محافظاً على زيّ موطنه الأسود في عمومه مع سروال أبيض ضيق مصنوع من الصوف المغزول بطريقة سردينيا، مع أنّه مهترئ وقذر بعض الشيء. لكنّ جورجي التيليغيرتا بدأ منذ أن اكتشف دار الصيانة وهام بابنة العمّ غافينوو الصغيرة بدأ يغسل وجهه ويديه ويحاول أن ينظّف نفسه، ورغم ذلك فقد بقي أسود كالشيطان وبقيت تفوح من حذائه ومن طاقيّته روائح الرعاة غير المحبّبة.

لم تظهر نانيا ثانية. هيّجت آلافُ الأفكار نفس الراعي الفتى فاضطربت، وكانت أفكاره تزيده ألماً كّلما رأى أنّ ظلّ العصا يطول على العشب الغضّ فوق المنحدر. لكنّ جورجي بقي مسمّراً في مكانه وهو يحدّق بثبات في نهاية الطريق حيث لا أحد بدا أنّه يمرّ عبر تلك المساحة الشاسعة من السهول المجاورة. في ظهيرة نيسان/ أبريل الجميلة تلك كانت غابات السنديان تغطّي السهول الموحشة إلى جانب القطلب والشوك وغير ذلك من عقدِ النبات، وكانت تنتصب صامتة مطمئنّة بأوراقها الغضّة التي تعكس زرقة السماء المتلألئة ممتدّةً

على مدّ النظر حيث يتلاشى أفق تُغلقه الجبال البعيدة المتلوّنة بلون أزرق ضبابيّ قاتم. كان جورجي يلمح من المكان الذي يقف فيه سقف دار الصيانة الذي يتصاعد منه دخان شفّاف، لكنّ كوخ الرعاة لم يظهر له، لأنّه كان بعيداً وغائباً داخل الغابة الكثيفة. كان الطريق يتلوّى في السهل بين أحراج الغابة وكأنّه وادٍ ناشف جفّفته الشمس ونمت الأعشاب على أطرافه فبقيت غضّة عالية جميلة لم تصل القطعان إليها لأنّها مازالت تجوب في مراعي السهل.

لم تأتِ نانيا. لم تظهر نانيا ثانية. كانت عيناه تلمعان قبل قليل ببريق غير معتاد كلّما خطرت في باله فكرة القبلة التي سيطبعها على خدّ حبيبته الصغيرة شاءت أم أبت، أمّا الآن فقد بدأتا تظلمان وكأنّما من رغبةٍ بالبكاء. أوّاه أيّها القدّيس جورج، لابدّ أن أمراً جللاً قد حدث. فلربّما مرضت نانيا، أو أنّ العمّ غافينوو قد اشتمّ الرائحة فمنعها من ورود النبع، أو...كان جورجي في طريقه لأن يترك مكان انتظاره ليذهب إلى مركز الصيانة مختلقاً بعض الأعذار، كما كان يفعل دائماً، لكنّه سمع على حين غرّة خبب حصانيْن ورأى على الحصانين سيّدين أنيقين تغطّيهما سحابة غبار ولم يتنازلا حتّى أن يعيرانه نظرة. لقد اعتاد أن يرى الكثيرين يعبرون الطريق لذلك فلم يلاحظ هو أيضاً شيئاً غريباً في الأمر، فنزل عن المنحدر وانطلق. لكنّه جفل وتوقّف في منتصف الطريق. ذلك أنّ مرأى الجرّة المزهّرة الطويلة التي يعرفها حقّ المعرفة جعلت قلبه يخفق بقوّة، لكن إلى حين قريب. فلم تكن نانيا هي التي تحمل الجرّة على رأسها، لم تكن نانيا هي التي تتقدّم فوق بياض الطريق التعيس، بمنديلها الأصفر المنشور على كتفيها برّاقاً تحت أشعّة الشمس. بل كانت أختها الأصغر آرّوزا أو روزا. سألها

جورجي وقد اشتدّ به نوع من الغضب: – لماذا تذهبين أنت اليوم إلى النبع؟ لكنّ آروزا، شقيّة من أسوء الشقيّات، عرفته ولم تجب على سؤاله بل بدأت تصرخ لتخيفه ونادت:

– إنّه تيليغيرتا، تيليغيرتا

لكنّه لم يلتفت إليها بل كرّر سؤاله بطريقة أقلّ خشونة وهو يقترب من الصغيرة. خافت آروزا أن يضربها فغصبت نفسها على الابتسام له وأجابته: – لأنّ نانيا تعمل. – وماذا تفعل؟ – تعمل لأنّ المتعهّد والمهندس سيصلان. ألم تشاهدهما وهما يمرّان من هنا؟ آه، كانا هما إذن؟ – وهل يأتيان في كثير من الأحيان؟ أحياناً بكثرة وأحياناً أقلّ. وماذا يهمّك من أمرهما؟ فكّر جورجي باصطحاب الصغيرة حتّى الجدول ليعرف أكثر عن الرجلين بعد أن بدأ يشعر بالريبة وبشيء من الغيرة إزاءهما خاصةً وأنّه بسببهما لم يحظ ذلك المساء برؤية نانيا. عندما مرّ على المنحدر أشار إلى قطيعه وهو يخاطب آروزا: – هل ترغبين بحَمَل صغير، حمل أبيض كسنّ الكلب؟ ظنّت آروزا أنّه يسخر منها، فأرادت أن تنتقم منه وهتفت من جديد – تيليغيرتا، بعد أن نغّمت هتافها بخليط من اللهجات، لكنّ جورجي كرّر عرضه من جديد بطريقة جادّة تمكّن بواسطتها من الحصول على كثير من تفاصيل السيّدين. فالمتعهّد كان من منطقة نوّرو بينما المهندس ذو اللحية الشقراء فكان من القارّة[1]. كانت آروزا تعرف هذا الأخير منذ ردح طويل من الزمن. كان كلّما جاء إلى دار الصيانة يهدي نانيا شيئاً من النقود، وكانت هذه تعطي بعضها لأبيها وتخفي البعض الآخر في

(1) يقول أهالي جزيرة سردينيا عن بقيّة الإيطاليين إنهم من القارّة، أي من إيطاليا.

كيس تضعه تحت الفراش. ولم تكن تعطي شيئاً منه لها، البتّة...لهذا فهي لم تكن تطيق رؤيته. ماهو اسمه؟ سألها جورجي مع تكشيرة ذات مغزى. – السيّد غوليلمو...وهل ينامان عندكم؟ أجل. ثمّ إنّ جورجي ترك الصغيرة فجأة وذهب متجهّم الوجه. تيليغيرتا – صرخت عليه أرّوزا – تذكّر الحَمِل، الحمل...لكنّه لم يجب بل اختفى بسرعة بين أشجار الغابة. كانت الغيرة تعصر قلبه. عاد إلى الحظيرة، لكنّه كان منزعجاً لدرجة أنّه تنازع مع الراعي الآخر أي العمّ كونكافريسكا وكادا يتنازلان بالأيدي. ثمّ عاد ليجوب في الغابة وهو يجرجر أحزانه بين أزهار القرّيص الفوّاحة أثناء الغروب الورديّ الجميل، ولم يتمكّن من فعل أيّ شيء آخر طيلة المساء. ما إن حلّ الغروب حتّى أصبح في جوار دار الصيانة، لكنه لم يجد الشجاعة الكافية للدخول إليها. بقي يدور حولها كالنفس الملعونة، ولم يقترب منها إلّا في الليل. ومع أنّه كان هناك عمود دخان رقيق ينطلق من المدخنة ليضيع في ضبابيّة ليالي نيسان/ أبريل المنعشة، فإنّ الباب كان موصداً وكذلك النوافذ وكان هناك صمت مطبق يخيّم في الأرجاء. لكنّ نور المصباح المتسرّب من نافذة غرفة المهندس في الطابق الأرضي كان كافياً ليكشف ملامح بقعة واسعة من الطريق. اقترب جورجي بريدا ورأى من خلال الزجاج السيّد ذا اللحية الشقراء الذي وصفته آرّوزا بأنّه مهندس وهو جالس بقميصه. من الأرجح أنّه كان يتهيّأ للذهاب إلى سريره. كان رجلاً طويل القامة، نحيلاً، أشقر ذا عينين صغيرتين لايمكن تمييز لونهما، ضيّقتين عند الزوايا بطريقة غريبة تعطي تعبيراً لطيفاً لكلّ ملامح وجهه. أي أنّه كان رجلاً وسيماً رغم أنّه من الصعب تقدير فيما إذا كان متقدّماً في العمر. إلتهمه جورجي بنظراته وخاصّة

عندما دخلت نانيا. اهتزّ جسمه كلّه ورأى نفسه يتراجع بغتة وعن غير وعي منه إلى الوراء خوفاً من أن تراه الصبيّة. كانت نانيا طفلة صغيرة نحيلة وحزينة. كانت تلوح على وجهها ذي الخمسة عشر عاماً جدّيّة تميل إلى المأساويّة، خاصّة وأنّ اللون الرماديّ الذي يسود شعرها الأشقر يزيد من شحوب بشرتها الناعمة القاتمة. كانت رائعة بشعرها الأجعد الكثيف الذي لابدّ أنّه يثقل على رأسها الزنبقيّ، رأس طفلة نضجت قبل الأوان. والواقع أنّها بعد أن ماتت أمّها قبل ثلاث أو أربع سنوات أصبحت هي ربّة المنزل في دار الصيانة. كانت تقوم بكلّ الأعمال، دون أن تهدر دقيقة من الوقت، ولاتساعدها آروزا إلّا من حين لآخر وعلى مضض شديد. لكنّها بدت منذ ثلاث أسابيع مشتّتة الذهن، وبدأت تهمل أعمالها المنزليّة وتقضي ساعات طويلة في طريقها إلى النهر. كما كانت تجتاحها أحياناً لحظات من مرح جنونيّ، في حين كانت تنفجر أحياناً أخرى في بكاء شديد. لاحظ العمّ غافينوو التغيّر الذي اصاب سلوكها، لكنّه لم ينبس ببنت شفة ولم يعرف لهذا سبباً. واصل جورجي بريدا التحديق بعينيها البرّاقتين من وراء الزجاج، وبقي قاتم الوجه مختلج الفؤاد، كانت تعصر قلبه مشاعر حنين ومحبّة عندما رأى أمام عينيه تلك الصبيّة الصغيرة الناعمة التي سحرته والتي كان على استعداد لأن يصوّب نيران سلاحه حتّى على الملك من أجلها. كانت نانيا ترتدي ملابس بزيّ منطقة أوتزييري التي نشأ فيها العمّ غافينوو فالديدّا، رغم أنّها أبقت على المنديل الممدود مثل نساء كامبيدانو. كما أنّ لباس خصرها من الحرير الضيّق ثُبّت من الأمام بواسطة سلاسل حمراء متصالبة ومتشابكة ليتّسع بعدها على شكل ثوب تنعقد أكمامه على المعصمين. أمّا التنّورة والمئزر

فكانت بسيطة من قماش هنديّ قاتم، ولم تكن نانيا ترتدي زينة أخرى سوى عقد مرجانيّ صغير وضعته حول عنقها الدقيق اللطيف. جاءت حافية القدمين وعارية الرأس لتحمل إبريق الماء إلى غرفة المهندس. رأى جورجي حبيبته وهي تبتسم للسيّد الوسيم الذي ابتسم لها بدوره وشملها بنظرة وابتسامة مفعمتين بالحبّ. وضعت نانيا الإبريق بخفّة ودلال في زاوية الغرفة ثمّ توقّفت إلى جانب المهندس. وتحادثا. لم يكن بإستطاعة جورجي حيث كان أن يسمع شيئاً بالطبع، وكان قد أصيب في كلّ الأحوال بدوّار عنيف من التشنّج والغضب والغيرة. آه، لا مجال للشكّ، لا مجال للشكّ...لقد خانته نانيا، نانيا معجبة بالسادة الوسيمين الأغنياء. تدفّق الدم إلى وجه جورجي واشتدّ قرعٌ كقرعِ المطارق على صدغيه. لو كان يحمل جفتاً في يديه لأطلق منه النار عبر زجاج النافذة ليقتل ذلك السيّد الذي جاء ليسرق منه حياته. شحب وجهه فجأة وارتعش جسمه وتراجع للمرّة الثانية بأسرع من المرّة السابقة. آه... يالهذا الذي يراه أمامه!...ظنّ أنّه سيجنّ ولن ينسى ما بقي حيّاً الشعور الذي راوده في تلك اللحظة. ذلك أنّ المهندس بعد كثير ابتسام وكثير كلام أخذ برأس نانيا الصغير بين يديه، بين يديه الطويلتين، يديه الطويلتين الناصعتين الناعمتين كأيد أنثويّة. ثمّ غطّاها بالقبل. ثمّ عانقها وضمّ الطفلة إلى صدره لفترة طويلة بينما كانت هي تبتسم وتبكي في نفس الوقت. تألّم جورجي وهو في الطريق. لابدّ أنّ المهندس شعر بأمرٍ ما لأنّه ما لبث أن تخلّى بعنف عن نانيا ليقترب من الزجاج. انسحب جورجي بدم بارد لجانب الحائط فلم يلاحظ له أثر. لكنّه رأى أن المربّع المضيئ قد اختفى من على الطريق فأدرك أنّ مصراعي النافذة قد أغلقا. عصف به غضب شديد واستولى عليه جبنٌ

أشدّ، فهمّ بالطرق على باب البيت ليقول للعمّ غافينوو: – انظر ماذا يحدث، انظر!... لكنّه لم يفعل. بل إتّخذ قراراً بقتل المهندس، فابتعد عن المكان وهو مأخوذ بهذا الرأي، واستولت عليه تنهّدات حادّة غريبة ومروّعة كانت تتلوّى في حلقه ...

عند بزوغ الفجر كان جورجي بريدا قد كمن وراء أكمة لاتبعد سوى مسيرة ربع ساعة عن دار الصيانة، وكان قد تسلّح بجفت العمّ كونكافريسكا. كان يراقب ممرّ المهندس لكي يطلق عليه أوّل طلقة نار. وكانت آروزا قد أخبرته في الليلة الماضية أنّ الإثنين سيتابعان في الغد رحلتهما نحو دار الصيانة الأخرى، أي لابدّ أنّهما سيمرّان من هذا المكان، حيث وقف ينتظرهما...وقد علت وجهه آثارُ قرارِه الشرس فشوّهت ملامحه التي اصبحت مخيفة، كما خيمّت على عينيه سحابة جعلتهما أحلك من المعتاد. كان ضياء الفجر الربيعيّ الغضّ يخيّم على المكان ويبعث في الحقول أروع شذى. وكان أفق الغابة يتلاشى في الجهة الشرقيّة ذات اللون الذهبيّ. بينما كانت الطيور تغنّي مرحة بين الأكمات البرّاقة بقطر الندى. لكنّ جورجي بريدا كان يعير انتباهه لأمر آخر غير روعة الصباح الشاعريّة. كان يشرف من وراء أكمته على مقطع من الطريق يرى فيه المنحدر الذي يسيل تحته ببطء شريطٌ من الماء تمتصّ أكثره أعوادُ القصب المرتفعة وبعض الزنبق الذي بدأ يتفتّح. كان يفكّر أيضاً بأحلام رآها مراراً وهو جالس على ذلك المنحدر، بأغانٍ غنّاها بصوت مرتفع عسى أن تسمعه نانيا من بعيد مصحوباً بهمسات السنديان وثغاء القطيع الذي كان يرد كلّ ليلة للسقيا في ذلك المكان فقط ، لأنّ جورجي كان يبعده عن النهر الآخر الذي كان يحترمه بل ويقدّسه باعتبار أنّه يسقي دار الصيانة.

وقعت نفس الراعي الشابّ في أسر الذكريات، وأصبح يفكّر بالإبتعاد متسائلاً فيما إذا كان كلّ هذا مجرّد كابوس مؤلم، لكنّ شعوره بالواقع كان يطغى عليه ليبقيه في مكانه. غير أنّ من ينتظرهما لم يظهرا، فكانت تمرّ كلّ دقيقة كأنّها قرن من الزمان خاصّة وأنّه قد يمرّ بعض الناس فيكتشفونه، أو أنّه قد يخطئ وقتها الهدف من شدّة خوفه.

هاهما أخيراً! كانت الشمس في طريقها لأن تشرق في الجهة المضيئة في أقصى الغابة عندما رأى جورجي حصانيْن وسمع الصوت المقيت يصدر عن خصمه. رأى من خلال الشجيرات المتشابكة في مخبأه المهندسَ فحدّق فيه بعينيه الواسعتين الجشعتين والحادّتين كعيني الصقر، وذلك ليتفحّصه بأفضل ممّا فعل في الليلة الفائتة. وهنا علت ابتسامة مريرة على شفتيه الدقيقتين الجميلتين فتعقّدتا وبدتا ذابلتين باهتتين من أثر اليأس الذي حطّمه خلال تلك الليلة الجهنّميّة الطويلة. آه، كان ذلك السيّد جميلاً ولطيفاً. فما شأنه هو، جورجي بريدا، التينغيتيلّا، بسحنته السوداء وبأسماله الخرقاء، ما شأنه إذا قورن بذلك السيّد الأبيض الأشقر، الأنيق في مظهره وملبسه؟ إنّ مع نانيا، السيّدة الصغيرة الجميلة الساحرة، كلّ الحقّ في أن تفضّله عليه. لكن إذا كانت تعجب بالسادة فلماذا سحرته وقالت له إنّها تحبّه وإنّها على استعداد لكي تنتظر الزواج به؟ شعر جورجي بريدا وهو يشرف على قتل الرجل برغبة عارمة في البكاء شنّجت جسده. اقترب السيّدان. فتهيّأ لجورجي أنّه يرى نانيا ثانية، صغيرته نانيا التي كان يعبدها كأنّها سيدّتنا عذراء المعجزات، رآها بين ذراعي المهندس فرفع جفت العمّ كونكافريسكا العتيق. عندما مرّ المهندس في مرمى نيرانه، ولم يكن يتوقّع حتماً ذلك الخطر المحدق به، خلع القبّعة الريفيّة البيضاء

ثمّ سندها لبرهة على السرج وابتسم بعد قليل وهو يواصل حديثه مع رفيقه رافع الرأس ووجهه يميل نحو الأكمة التي يختبأ جورجي وراءها. بدا وكأنّه لمَحَهُ ورآه. بزغت الشمس فغطّت بأوّل شعاعها أنحاء الطريق وصبغته بلون أصفر ورديّ انعكس حتّى على الفارسيْن. لم يطلق جورجي النار بل ترك خصمه يمرّ بسلام وأمان. فعندما رأى عينيّ المهندسِ وابتسامته برقتْ فجأة في خاطره المضطرب فكرةٌ غريبة لجمت يده.

عند حلول الثانية كان متّكأً على عصاه الطويلة، صولجان الراعي، وقف منتصباً كما كان في اليوم السابق على الحافّة المليئة بالأعشاب والأقحوان، وكان يترقّب وصول نانيا. كان جورجي قد ذهب في الصباح إلى نوّرو بزوّادته من الجبن الطازج وقشدة الريكوتّا والحليب، وهناك غيّر كلّ ملابسه. هاهو الآن وقد امتقع وجهه فوق قميصه الأبيض الباهت الذي زاد من الشحوب الناشئ عن الانفعالات الفظيعة التي عاناها. لقد شحذ الألم والسهاد ملامحه حتّى أنّ نانيا قالت له عندما رأته في ظلّ المنحدر: – ماهو سبب كلّ هذا الجمال اليوم؟ ... كان للطفلة الصغيرة صوتٌ حلو حزين أكسبه اللفظُ العاميّ للهجة منطقتها مزيداً من الحلاوة. كان جورجي قاتم العينين، فلم يجب بل حدّق فيها وكأنّه يريد أن يخترق نفْسها. – أنتِ اليوم أجمل...أجابها بصوت غاضب. ثمّ أخذ عنها الجرّة عنوةً وركنها على الأرض قائلاً: – يجب أن نتحدّث اليوم طويلاً يا ناني...خافت ونظرت إليه بفزع. غير أنّ جورجي وجدها رائعة الجمال بالفعل وخاصّة بمنديلها الكبير ذي اللون الذهبيّ المزهّر الممدود على كتفيها كالكفّ، وهكذا فقد رقّ قلبه فجأة ووقف جامداً يتأمّلها. بدت كأنّها إحدى الصور المقدّسة

المرسومة على مطرّزات مغربيّة من التي تشاهد في بعض اللوحات الإيطاليّة من القرن الخامس عشر. فكّر جورجي بجمال السمراوات اللائي عرفهنّ حتّى ذلك الحين فاستقرّ شكّه في اليقين. وقال لها: – اجلسي، وأجبرها على الجلوس على حجر، فلتتكلّم. – لن أبقى، لن أبقى...أجابته وهي ترتجف. – أبي...– أبوك بعيد ولن يرانا أحد. ثمّ ما العيب في أن يرونا؟ أليس بوسعنا أن نكون أصدقاء، معارف؟ ... يا إلهي، يا إلهي، لا أستطيع...والحقيقة أنّ نانيا كانت تشعر بمسرّة حقيقيّة لفكرة الجلوس لفترة ما قرب جورجي لذلك فإنّها لم تتحرّك رغم أنّها كانت تشعر بخوف كبير. – ما شأنكَ اليوم؟ سألتْهُ وهي ترتجف. ماذا حلّ بك؟ لربّما تضايقت لأنّي لم آتي البارحة؟ كان عندنا المتعهّد والمهندس وتوجّب عليّ أن أعمل كثيراً. لا يوجد أحد في دار الصيانة. صمتت وغاصت نظراتها في خواطر حزينة مؤلمة، وعندما رأى جورجي أنّ وجهها يزداد شحوباً ولاشكّ على ذكرى المهندس ارتجف وابتعد عنها قليلاً. كان يراقب وجه الطفلة بينما كان يغوص قلبه في ظلمة قاتمة. لا مجال للشكّ، لا، لابدّ أنّ نانيا تخونه، والمهندس هو عشيقها. مابكَ؟ مابك؟ كرّرت سؤالها. ماذا بي؟ صاح جورجي وهو يلوّح بذراعيه كالمجنون. – تعرفين أكثر منّي ما الذي حلّ بي...– أنا لا أعلم شيئاً! هل جننت؟ أجل، أظنّ أنّي سأجنّ. اسمعي يا نانيا، أنت مازلت صغيرة، لكنّك أشدّ خبثاً منّي. على كلٍّ لن تواصلي خداعي والسخرية منّي، لا، لن تواصلي هذا. تظنّين أنّني فتى صغير، لكنّي لست كذلك، لا. لست إلّا بائساً فقيراً، ولم يكن عليك أن تسخري منّي، لأنّني قادر على جعلك تدفعين غالياً ثمن هذه اللعبة، هل تسمعين يا ناني، ناني؟ كانت نانيا تنظر إليه

بدهشة، ولم تعرف بماذا تجيب على كلّ هذا الغضب. ألا تجيبين؟ صاح جورجي. – اخفض صوتك... قالت الفتاة وهي تنهض وتصيخ بأذنيها. – إذا سمعنا أبي...– وماذا يهمّني؟ على كلّ لن يكون بيننا أيّ شيء بعد الآن... – لكن ماذا دهاك؟ ماذا أخبروك؟ سألته يائسة. – لا شيء، لم يخبروني بأيّ شيء، بل رأيت أنا، بعينيّ هاتين، رأيتُكِ مساء البارحة. لماذا تركتِ النافذة مفتوحة ياحلوتي؟ لكنّ سيدّك الجميل ذاك تعرّض هذا الصباح لقِبْلةٍ كادت تلامس مابين أنفه وشفتيه. لم أفعل لأنّ فكرة جنونيّة طرقت خاطري. لقد بدا لي عندما رأيته يبتسم أنّه يشبهك، ففكّرت قائلاً لنفسي: ألا ترى أنّك مجنون، فلربّما كان هذا أبوها...لكنّي أعرف الآن أنّ ذلك كان مجرّد عبث وجنون. كيف يكون أباك! أبوك هو العمّ غافينوو، ليأخذه الشيطان.. وأنتِ...أنتِ... وهنا أقلع جورجي عن الكلام وهو يبتلع لفظ إهانة مروّعة – أنت عشيقة المهندس. مرّت كلّ ألوان قوس قزح على وجه نانيا المتألّم. وبدا أنّ قلبها، قلبها الصغير المتيّم، سيمزّق الحرير المهترئ في لباس صدرها القديم، كما برقت قطرات دمع كبيرة في عينيها. لم تحاول أن تنكر، أو أن تتكلّم. إذ استولى عليها خوف طفوليّ شديد وخشيت أن يؤذيها جورجي وهكذا فكّرت بالهرب وانطلقت بحركة سريعة جعلت من الصعب على الفتى أن يلحق بها على الطريق. لكنّ جورجي صاح وهو يمسك بذراعها ويغتصب من شفتيه ابتسامة: نانيا، لم أعتقد أنّك سيّئة إلى هذه الحدّ...لماذا تهربين؟ هل تخافين ربّما أن أقتلكِ؟ ...لم يكن لها هي أيضاً إلّا أن تبتسم، ووقع منديلها فغطّت الشمس بأشعّتها كلّ رأسها الأشقر. أطلق جورجي صيحة فرح ودهشة وهو يرى ملامح وجهها المبتسم وعينيها الزرقاوين زرقةً مخضرّة شبيهة

كلّ الشبه بعينيّ المهندس. فقال لها: نانيا، نانيا، سامحيني، قالها وهو يبتسم ويجهش في البكاء. – تعالي، تعالي، فلنتصالح. يا الله إنّكَ أنتَ الحقّ، وحقٌّ سيّدتنا عذراء المعجزات. لن أخبر أحداً بما وقع. لن أذكره حتّى أمامك، أبداً، البتّة، أبداً بعد الآن. تعالي وخذي الجرّة، تعالي، تعالي...كاد أن يحتضنها بين ذراعيه وقادها نحو الظلّ. بدت نانيا ميّتة، بقيت ساكنة شاحبة، لكن ما إن قال جورجي: – من كان يظنّ هذا، من كان بوسعه أن يظنّ مثل هذا الأمر...أمّك...هنا انتصبت نانيا، اشتعل وجهها وبرقت عيناها بالغضب والبكاء وصرخت: – أمّي ميّتة! احترمها لأنّها كانت امرأة قدّيسة. لقد عانقني المهندس وقبّلني لأنّني عشيقته...اقتلني إذا شئت، اقتلني ياجورجي بريدا، لكن لاتنقّب في حقّ أمّي...ثمّ وقعت على الأرض وانهمرت بالبكاء. أضاعت بتلك الكلمات كلّ شيء. أضاعت حبّ جورجي الذي كانت تعبده بكلّ حماسةِ أعوامِها الخمسة عشر، وحبّها الأوّل، أضاعت آمالها الحلوة، أضاعت شرفها ولربّما وضعت حياتها بالذات وحياة المهندس موضع الخطر، لكن ماذا يهمّ؟ خاصّة وأنّها بتضحيتها هذه أنقذت ذكرى أمّها وسمعتها، أمّها التي كان الجميع يجهل ذنبها بما فيهم غافينوو فالديدّا الذي مازال ينتحب عليها ويقدّس ذكراها... لكنّ جورجي بريدا رأى. بقي للحظات ساكنًا بصمت مطبق يراقب الطفلة الصغيرة وهي جالسة على العشب، ومازالت تبكي. كان صوتُ بكائها الطفوليّ اليائس يضيع في صمت الظهيرة الشامل وفي الحقول الواسعة النائمة فلايسمع جورجي إلّاه صوتاً. كاد أن يهرب بعد أن شعر بنفسه إنساناً حقيراً غير جدير بنانيا الصغيرة. لكنّه لم يتمكّن بالطبع من تحريك خطاه. تذكّر بالطبع كلّ الوعود الحلوة التي تبادلاها، تذكّر أحلام

الحبّ التي كانت تعوده في الليل خاصّة، بينما كانت أغنام القطيع ترِدُ الماء تحت الجسر، هناك بين الزنبق والدفلى، ظنّ أنّ بوسعه أن يتزوّج من نانيا بعد ثلاث سنوات. وانحنى عليها. قالت له: – دعني وشأني.

لكنّ جورجي انتصب كالريشة، أخذها بين ذراعيه وغمر وجهها بالقبل حتّى تمكنّ من طمئنتها وحملها على أن تبتسم.

بين الأحراج

-1

هاهو الفجر يبزغ. بزع في سماءٍ زرقاء مغبرّة ذات حلاوةٍ حزينة عميقة تنحني فوق سهوب واسعة صامتة. في الأفق البعيد مازال يخيّم الظلام، هناك بدأ الفجر يداعب المنعطفات الواسعة بلونها الورديّ الباهت وهو يتلاشى بالتدريج في أفق بعيد مازال داكنًا. هناك ترى أيضاً تِلالاً تتلاحق متوالية، واسعة، منخفضة، متموّجة، ومتشابهة تبلغ منتهى النظر وهي تشكّل بقعاً من الظلّ موحشة مهجورة. لايوجد في تلك الأرجاء بيت ولاشجرة ولاقطيع ولاطريق.

ليس هناك إلّا ممرّات منحدرة، وأسوار صغيرة منهارة تغطّيها الطحالب الصفراء، وميازيب ماءٍ آسن تتوسّط بلونها الرماديّ أقصاباً خضراء مسودّة، وشجيرات قزمة وبقع واسعة تسودها أنواعٌ من الصمغيّات تعكس أوراقُها ضوءَ الفجر المزرقّ. أمّا في الخلف، وعلى مستوى الشمال المظلم فتلمع منحدرات الغرانيت الرماديّ قرب سور المقبرة.

يهيمن الصليبُ الأسود المرسوم في السماء التي يزداد لونها تورّداً على التلال المهجورة فيبدو كأنّه شعارٌ يتقلّده هذا المكان الحزين الخالي من معالم الحياة، الساكن المترامي تحت قبّة السماء الزرقاء الرماديّة. وهاهو الفجر يبزغ.

كانت دار الصيانة البيضاء[1] ذات السقف الأحمر نائمة ساكنة تحت بريق الظهيرة الحارق: كأنّ نوافذها الخضراء كانت غارقة في التفكير وهي ترنو نحو طريق أحرقته الشمس، كما كانت تتساقط من الإفريز ذي اللون السماويّ المغسول قطع ظلّ ذي غضاضة لاتوصف. كان الطريق ناصع البياض بما عليه من أكوام حصى تبرق تحت الشمس، وكان يتلوّى في السهل الواسع المغطّى بغابات السنديان. في البعاد كانت هناك جبال تنحدر ذؤاباتها وهي مغطّاة بأبخرة زرقاء مشعّة حارقة. وكان الهواء في الأسفل ساكنًا لايطاق رغم روعته المنهمرة من سماء تبدو معدنيّة، وكانت غرسات البلّوط المورقة تعكس ظلالاً خضراء قصيرة على التربة القاحلة وعلى الصخور المفروشة بأعشاب ناعمة تتشكّل على هيئة صورٍ كألعاب الأطفال القماشيّة الطريّة. حتّى أنّ طفلة استلقت هناك على قفاها واضطجعت على واحدة من تلك الصخور بذراعين وساقين شبه عارية.

كان شكلها النحيف الجميل يبرز على خضرةِ ذلك البساط من السجّاد الطبيعي. كان هناك ورود حمراء تلمع بين ظلال الغابة الحريريّة فوق لباس صدرها الرثّ نوعاً ما. في حرّ الظهيرة الخانق كانت بشرة الطفلة ذات البياض الإستثنائيّ تبدو متناقضة بروعتها مع ملابسها البائسة البالية. كان شعر الطفلة الأسود القاتم ينسدل تحت

(1) كانت دور الصيانة في إيطاليا Le case cantoniere أبنية من ملكية هيئة الطرقات مبنية على الطرق الكبيرة خارج المدن أو قرب السكك الحديدية ويسكن فيها عمال الصيانة مع عائلاتهم ليكونوا في موقع العمل بصورة دائمة. وكاد استعمالها لهذه الأغراض ينحسر بشكل عام.

منديلها الأصفر، فتتميّز عيناها الضبابيّتان بلونهما الأسود الرماديّ تحت الجفون الناعسة المتعبة. من هي؟ من المستحيل معرفة ذلك. خاصّة وأنّ الفتاة لا تبدي أدنى حركة: كانت متراخية الأطراف أنهكها الحرّ الحارق، أو ربّما كانت تحلم، أو أنّها كانت نائمة. ظهرت على كلٍّ بيضاءَ ساكنة رغم سفع الظهيرة المشتعل، مثلها تماماً مثل دار الصيانة القريبة.

-3

هاهي الشمس تغيب: يقترب من القرية ضجيج حفلٍ، مضطرب مبهم بعيد، ويدخل إلى الغرفة الصغيرة الهادئة في بيت الفلّاح.

كانت نافذة البيت مفتوحة على شرفةٍ من طوب اللبن. كانت نبتة ريحان صغيرة تتمايل مع نسمات الغروب فوق الشرفة: بدت كأنّها تبتسم هي الأخرى رغم أنّها وحيدة منسيّة وسط بهجة البيوت السوداء والسماء الذهبيّة. هاهي الآفاق المضيئة! يحيط الوادي الأخضر بالقرية، ويضيع عطر النباتات المزهرة بين الضباب البركاني الحارّ ساعة غروب الشمس. تطلّ شرفة طوب اللبن الصغيرة على درب ضيّق وبيوتات صغيرة أخرى سوّدها الزمان واعتلت الطحالب سقوفها. كانت البيوت تتوالى في صعود وصولاً إلى القصر الريفيّ الإسبانيّ القديم الذي بدأت واجهته المبنيّة على طراز مغربيّ تحمرّ وهي تنظر نحو الغرب بينما تضيع درجاته المتهاوية في روعة السماء كأنها ذكرى حزينة لأيّام الإحتلال الإسبانيّ الآراغوني[1] تخبو بين

(1) في عام 1324 اصبحت مملكة سردينيا حزءاً من مجموعة الدول الخاضعة للتاج الآراغوني.

أضواء الأزمان الحديثة. كان الباب الصغير لأقرب بيتٍ إلى الشرفة مغلقاً، وقد عُلّق عليه من الخارج إكليل تينٍ مجفّف، كما ربض هرٌّ على عتبة النافذة الصغيرة. لقد احترق ظهره وهو يتأمّل بوقار شديد الطريق حيث لايوجد إلّا امرأة تمرّ بوجهها النحاسيّ، إنّها ترتدي زيّاً محليّاً وأوثقت لباس صدرها المصنوع من قماش أصفر ومخمل بنفسجيّ منقوش. كان في الغرفة وراء الشرفة فتى يرتدي هو أيضاً زيّه المحليّ ويشرب قهوته. ركّن فنجانه الأخضرعلى منصّةِ موقدٍ شبيهٍ بالمواقد الجداريّة القديمة، وكان قد وقف منتصباً وظهره إلى النافذة وهو يحتسي على رشفات متتابعة شرابه المفضّل.

إنّه مريض، لكنّ وجهه الأشقر الذي ازداد شحوباً خلال فترة النقاهة بدأ يفصح عن طلاقةٍ وحماسةٍ من يرى الحياة من جديد بعد معاناة طويلة مع المرض. كان سريره الخشبيّ مغطى بقماش قطنيّ مزهّر بالأرابيسك[1]، منخفضاً وقاسياً لكنّه يوحي بما يجب أن يوحي به من هدوء وطمأنينةٍ قادرة على جلب النعاس والدعوة إلى النوم. أمّا الكراسي فكانت رماديّة، وخزانة الملابس البدائيّة حمراء، والصندوق الخشبيّ أسود، نقشت عليه ورود غريبة وصور حيوانات من ما قبل الطوفان. وكانت الطاولة مغطّاة بمنديل أبيض عليه أباريق وفناجين للزينة. كان كلّ شيء يبتسم حول الفلّاح الفتى المتماثل للشفاء، يبتسم بطمأنينةٍ وسعادة، رغم الفقر الواضح تحت ضياء الغروب الورديّ.

(1) الأرابيسك عبارة عن نماذج تزيينة معقدة، زخارفه متداخلة ومتقاطعة وتمثل أشكالا هندسية وزهورا وأوراقا وثمارا. وهذا الفن يميز الفن الإسلامي وخاصة في تزيين السيراميك والعمارة. وقد انتشر في أوروبا ولاقي رواجا في القرنين 15و16.

في الأعلى على الجدران المطليّة بالكلس كان هناك صفّ طويل من مربّعات مدهونة بألوان زاهية تبرق بروعة من خلال الغبار الذهبيّ، كما كان زجاج النافذة القديم يشعّ كأنّه صفائح مذهّبة تلمع تحت ضوء الغروب.

-4

هاهو الليل ينسدل! وبدأت الظلال تتكثّف شاحبة باردة ومفعمة بالغموض على الكنيسة الإعجازيّة، على المزار الشهير الذي سبق وأن عبرته حشودٌ ضخمة لم تترك أيّ أثر خلفها.

في نهاية الطريق ينهمر من النوافذ الكبيرة ذات الطراز البيزنطيّ شعاعٌ أزرق حادّ على أرضيّة من الطوب مرصوفة بأشكال فسيفسائيّة تلمع ألوانها بانعكاسات مضطربة تصدر عن مياه راكدة. كان هناك في أعلى المذبح الأبيض مصباح بلّوري قرمزيّ اللون ينشر وميضاً أحمر يرتجف وهو يصعد ويهبط على الزهور الباهتة، والشمعدانات المذهّبة، والأعمدة الناصعة البياض المصنوعة من رخام البيشم بطراز يونانيّ دوريسي[1]، القائمة في المحراب المفروش بستائر الدامسكو[2] ذات اللون الأزرق الشمعيّ.

الجدائل السوداء، رائعة السواد، تحكي كثيراً من الروايات والمآسي العظيمة والمراثي. وعلى الجدران المغبرّة الصفراء تتدلّى مجوهرات ذهبيّة أو فضّيّة، وظلال شمعيّة رائعة، وأيادي عذراوات

(1) النظام الدوريسي من أقدم النظم المعمارية اليونانية.

(2) الدامسكو قماش معروف مزيّن عادة وكان يصنع في دمشق ومن هنا اسمه العالميّ.

مسيحيّات طريّة، حلوة بل رائعة. وأعناق أنيقة ناصعة البياض كأعناق العذراوات الإغريقيّات. هاهي هنا طفلة أخرى، تختلف عن تلك الطفلة العاميّة المبتذلة المستلقية في ظهيرة الغابة. فهذه سيّدة من السيّدات: ترتدي ملابس بيضاء أنيقة. هاهي راكعة على درجات المذبح وقد سندت جبهتها على الدرابزين وضمّت يديها بشدّة إلى بعضهما في حرارة الصلاة.

ظهرت طريّةً تجاعيدُ ثوبها الطويل ذي الأكمام البارزة بطراز الامبراطورة مارغريت ديفو[1]. بدت السيّدة كالتمثال، خاصّة وأنّ التجاعيد كانت تترامى بشكل فنيّ وتلمع بيضاء ناصعة ورائعة وراء الظلال المحمرّة التي يلقيها المصباح الليليّ. كان وجه الطفلة الشاحب، وعيناها الكستنائيّتان العميقتان الواسعتان تعبّران عن قنوط أليم يغور في أحزان الغسق المتهاوي. إيهٍ، أيّ فضلٍ تطلب تانكما العينان من القدّيس أبي المعجزات المختبئ وراء ستارة الدامسكو كملوك الشرق؟ هاهي تستقيم في النهاية وتخرج من الفسحة لتقف ساكنة أمام الدرابزين المطلّ على الوادي. على خلفيّة سماء مصبوغة بألوان الزمرّد والزعفران ترتفع جبال سوداء يطلّ القمر بين قممها المتعرّجة. تبرق رمال الفسحة الكبيرة لتعكس أولى أشعّة القمر، بينما تلوح معالم القرية في الأسفل بين شوكيّات الوادي الرمادية وأشجار الصفصاف الفضّيّة، كما ينتصب المزار شماليّ السماء الأرجوانيّة بنافذتين عملاقتين على الطراز البيزنطيّ تظهران كعينين

(1) وهي (Margherita di Valois 1553–1615) وقد سميت أيضاً امبراطورة فرنسا أولا لأنها كانت أميرة فرنسية المنشأ ثم بسبب زواجها. وكانت آخر من عاش من عائلة فالوا.

غريبتين مصنوعتين من برونز مطليّ برّاق وتعكسان أنواراً أصبحت بهيّةً ببزوغ القمر. تنتشر في الخلف حقول منتصف الليل الخصبة الواسعة ووديان منحدرة تزمجر فيها السيول وجبال تسيطر الأساطير على قممها، وتمتدّ غامضة مبهمة المعالم كما في الأحلام على الضياء الباهت الصادر عن الغسق الأخير. في السهل تستريح قرى عظيمة بين أشجار المصطكي الرماديّة أو على قمم المنحدرات القاتمة. كانت الطفلة البيضاء ترنو نحو الشمال، فتبدو لها رؤى كبيرة غامضة وتعبر خلال عينيها المتأمّلتين أحلام قديمة عميقة، وهما تائهتان في أقصى البعاد، ليبدو وجهها الشاحب وثوبها الرخاميّ كأنّهما قدّا من فضّة تحت سطوع القمر الثلجيّ وهو يزداد بياضاً وإشراقاً بتقدّم الليل.

–5

وسط ليلٍ ببدرِ التمام يمرّ ثلاثة فرسان على خيل تخبّ عبر دروب الجبال الصخريّة. تلمع سبطانات بنادقهم تحت ضوء القمر وتصهل خيولهم وسط صمت المكان العميق الرائع.

كانت الغيوم ترتفع عالياً من البحر اللؤلؤيّ المرسوم بدقّة في منتهى الأفق، ترتفع ببطء إلى السماء البهيجة بقمرٍ اكتمل بدراً، زرقاء شفافّة على خلفيّة المنتهى البيضاء. بينما ترسم الثلوج في أعلى قمم الجبال الصخريّة أشكالاً بألوان الطيف تبدو أوهاماً رخاميّة أو منمنمات ذهبيّة جديرة بأشعارهاينه[1]، لكنّ أشجار البلّوط العتيقة ترتعش في وجه رياح الشمال وهي تصفّر بأساطير وقصص دمويّة

(1) هاينرش هاينه (1797– 1856) شاعر ألماني ألّف موسيقيون كبار كشومان وشوبرت من قصائده معزوفات موسيقيّة.

بين منحدرات الوديان وكهوف الغرانيت. يتّخذ الدرب المعوجّ الحادّ أشكالاً تصويريّة تصبح مخيفة أحياناً في ظلمة الليل خاصّة عندما يمرّ عبر الجروف الضخمة والكتل الصخريّة السوداء التي كثيراً ما تتّخذ أشكال أبراجٍ قوطيّة مهدّمة أو قبورٍ من العصور الحجريّة يغطّيها اللبلاب وغيره. تنهمر أضواء القمر على شكل حزم ألماسيّة تخترق الغابة لتعكس على نباتات السرخس المائلة مع الرياح هالات أرابيسك مزخرفة ورسومات دامسكو شرقيّة: فتكتسب السماء القمريّة من خلال البلّوط الأسمر مظهراً ساحراً بروعة الجواهر يذكّر بسماوات خارقة كالتي تحكي عنها الجنيّات الساحرات. بينما تملؤ نباتات بخّور مريم والطحالب وفراش الليل الهواء بعطر واخز كعطور الغابات المداريّة. مازال الفرسان الثلاثة يجتازون الدرب سوداً صامتين ملّفعّين بمعاطفهم البنيّة الموصولة بأغطية للرأس مدبّبة فيظهرون على صورة فرسان تائهين هائمين على وجوههم كما في ملاحم القرون الوسطى، وكان هناك أيضاً راعي صغير يسير بقطيعه ويحطّم العزلة الواسعة لهذا المكان الجبليّ. كان جالساً على تلّة غير عابئ بالرياح التي تصفّر في ضياء القمر، يراقب القطيع وهو يرعى خلال الليل المضيئ، وكان مستغرقاً في سماع ثغاء الأغنام الذي يتواتر مملّاً كثيباً بين الوديان المعشوشبة والأحجار المغطّاة بالطحالب، كما بين نبتات الخلنج البريّة والجذوع التي زحزحتها العواصف. كان الراعي الصغير قبيحاً، وجهه قاتم مثل ملابسه الكالحة، لكن كان هناك في عينيه النحاسيّتين بياض مزرقّ كما يشرق في قزحيّته المفعمة بالوهن شعاعٌ تاملّي رائع: فلربّما كان لهذا الراعي الصغير نفْسٌ عذراء بريئة ومتوحّشة تشبه الجبال الصخريّة التي يمضي عليها أيامه المقفرة، وقد يكون قد أصبح

شاعراً قادراً أكثر من أيّ فنّان مثقّف مرهف الأحاسيس على تذوّق الأشعار الخفيّة الغامضة المترعة بمشاعر روحانيّة تتجاوز طاقة البشر، أشعار الصمت الأزرق في السماء المقمرة.

أرز لبنان

في ذلك الزمان كان الريف، الريف الروماني القديم، يصل حتّى سياج بيتنا. كانت أشجار الصنوبر والدلب تصطفّ على قارعة هذا السياج الذي كسرته حفريّات الحيّ الجديد. وكانت ترى الأغنام وهي تطلّ بين الأعشاب الطويلة والأقصاب التي كانت تترنّح مع نسمات الرياح فتظهر كأنّها أرغن طبيعي. أمّا البيت الذي كان يعبق بروائح الدهان والكلس، فكان ينتصب عارياً أجرد وسط الحقل المحفور والمليء بالحصى وكسر الحجارة: وكانت الأصوات تتردّد في غرفه كما تتردّد في الأمكنة غير المسكونة. كانت الدهشة تغمر طيلة النهار قلوبنا وكنّا نشعر ببرودة كبرودة الفجر عندما يصلنا صخب المدينة مختلطاً بهدير البحر البعيد. عندما كنّا نذهب إلى المدينة لم يكن الحوذيّون يقبلون بتوصيلنا إلى البيت، وخاصّة خلال الليل، وكأنّهم سيرافقوننا إلى مكان موحش وناء بعيد. والواقع أنّ نعيب البوم كان يسمع هناك، وهكذا فقد تعوّدنا على البقاء في البيت، وصار بوسعنا التمتّع بالنجوم المنسيّة فوق منفانا، وبالقمر وبتراكض الغيوم. كما انطوينا على أنفسنا لنتمتّع بألوان الأرض والأعشاب والأحجار.

ذات يوم وبينما كنّا نحفر في جدار السياج المهجور وجدنا بقايا مقبرة قديمة لابدّ أنّها تعود إلى عهود غابرة وعثرنا بين ركامها على جمجمة بشريّة. كانت الجمجمة سليمة كاملة، وناعمة الملمس كأنّ فنّاناً حاذقاً صقلها: برزت أسنانها، ولمع الرأس كأنّه قُدَّ من

عاج. وجدنا في الأرض التي كانت تحتضنها أنواعاً كثيرة من الحياة الطبيعيّة: كما خرجت من محجري العينين خطوط فضّيّة من جذور النبات على شكل أشعّة صغيرة. أعدتُ دفن الجمجمة وبدأت أراقب كلّ ما يحدث فوقها بعد ذلك. فرأيت بعد تعاقب الفصول أنّ بعض خيوط العشب قد نبتت فوق المكان الذي كان يخفي الجمجمة.

في الخريف، عند عودتي من الريف كانت هناك مفاجأة حلوة بانتظارنا: رأيت في المكان الذي كنت أعتني به أرزة لبنان تبرز كأنها شمعدان أخضر. (وكنت قبل سفري قد غرست مايشبه الصليب فوق الأرض التي بدت لي مقدّسة). فهل حدثت معجزة إذن ليتحوّل الصليب إلى أرزة؟ أو أنّ معجزة أكبر جعلت الأرزة تنبت من جذور في الجمجمة؟ غير أنّي عرفت – بعد أن تعرّضت لشيء من سخرية أهلي على هذه الفرضيّات الجنائزيّة – أنّ سيّدة من صديقاتنا تملك حديقة غنّاء أثارتها الشفقة على بؤس حديقتنا، فعملت على نقل شتلة أرز من حديقتها لغرسها عندنا وتمّ ذلك دون أيّ اعتبار للصليب أو للجمجمة.

في البداية بل ولردح من الزمان كنت أنظر بعين غاضبة إلى ذلك الدخيل: بل وكنت أفضّل عليه أصناف الأقحوان التي نبتت تحت الأرزة، أمّا في الربيع التالي فقد بدأت الأرزة تتمايل فوق العشب وهي أعرض وأقوى.

لم تكن الشجرة تهتمّ بشيء من عنايتنا. حتّى إنّ بستانيّ الحديقة قال للسيّدة التي وهبت الغرسة عندما جاءت لزيارة النبتة الفتيّة: «يكفي ألّا نقطع ذؤابة قمّتها. وهي ستتكفّل بالباقي. إنّها شجرة تعيش لآلاف السنين، لا بل إنّها تعطي أولى أزهارها عندما يصبح عمرها مائة سنة. لم يسبق لي بالطبع أن رأيت هذه الزهرة، لم أشاهدها البتّة. لكنّها لابدّ أن تكون جميلة وكبيرة مثل راية زرقاء. ويقال إنّ هناك أرزة مازالت

باقية على تلال القدس كان المسيح والحواريّون يجتمعون تحتها خلال ليالي الصيف المقمرة، فنرجو أن تعمّر هذه الأرزة كما عمّرت تلك، عسى أن يشاهدها أحفادُ أحفادِك وهم في أتمّ الصحّة والعافية».

وفي أتمّ الصحّة والعافية شاهدها أوّل من شاهدها أطفالنا. لقد كبروا معها وهم يلعبون حولها. كيف ينقضي الزمن! هاهي الشجرة على حالها، يبدو أن لا رغبة شديدة لها في أن تنمو: كأنّها تنتظر أن تصل قامة الأولاد إلى ارتفاع جذعها لكي يتمكّنوا من اللعب معها وأن ينصبوا أرجوحتهم على أغصانها. لكنّها كانت تشتغل في الخفاء: فيكفي أن نزيح قليلاً من التراب عن ساقها حتّى نرى الجذور وقد أصبحت تضاهي الأغصان في حجمها وهي تتغلغل في الأعماق لتستولي على الأرض حولها. ولا بدّ أنّها تتسلّى بالعمل بينما لا يراقبها مخلوق، حتّى أنّ الأولاد عندما يعودون كلّ عام من المصيف يلاحظون أنّ قامة صديقتهم قد طالت بضعف ما كانت عليه قاماتهم. لقد أصبحت الآن أختهم الكبيرة. وعليهم الآن أن يقفزوا قفزة كبيرة قبل أن يصلوا إلى إحدى أغصانها، بعدها لا يمكن لهم أن يبلغونها البتّة. أمّا إذا رغبوا بمعانقتها أو التآلف معها فعليهم أن يتسلّقوا جذعها ويقارعوا متانته. هذا لا يعيق صداقتهم معها بل يقوّيها ويشدّها أزراً ورجولة. وفي أواخر الربيع عندما يحلو السمر في الأيّام الجميلة، كان الأولاد – فبالنسبة للأمّ هم دائماً أولاد – يجلسون على غصنٍ مضيافٍ أكثر من غيره، ليرافقوا تغريد الحساسين بقصائد أوراتسيو وكاتولّو[1]، وعندما يرفعون

(1) أوراتسيو (56 قبل المسيح– 8 قبل المسيح) اسمه Quintus Horatius Flaccus وبالإنكليزية Horace من كبار الشعراء الغنائيّين في روما القديمة. كاتولّو (مات عام 54 قبل المسيح) اسمه Gaius Valerius Catullus من الشعراء اللاتينيّين في آخر أيّام جمهوريّة روما.

أبصارهم تلقاء قمّة الأرزة سيشاهدوا على قمّتها المنيعة الزهرة «الرائعة كروعة الراية الزرقاء»، راية مستقبلهم.

والآن جاء اليوم الذي توقّفوا فيه عن التوادد مع الشجرة: إذ لابدّ الآن من احترام الطيّة في أسفل البنطال وألّا يشاهدهنّ الآنسات عندما يعبرن الطريق. لكنّ أحوال الطريق تغيّرت الآن للأسف لأنّها أصبحت شرياناً من شرايين المدينة، كما قضت رائحة الإسفلت على عطور الحقول. تطاولت البيوت والأبنية حول المسكن الصغير الذي كان وحيداً، لكنّ الأرزة وغيرها من رفاقها مازالوا يعيشون في الحديقة ويحمون حياتنا اليوميّة المتواضعة من عيون الفضوليّين القريبة. لقد ارتفعت الأرزة على وجه الخصوص عالية في مهبّ الرياح لتتصدّى لمهمّة الدفاع والحماية. إنّ فيها لوحدها ما في غابة بأكملها من قوّة ونضارة ووئام، وهاهي خضرتها تملؤ الهواء الذي يعبر نوافذ البيت، وتتأرجح ذروتها حول كلّ ما حولها لتغطّي أفقاً واسعاً عريضاً، إنّها تلاعب الغيوم، وتشتعل مع حمرة الغروب لتتضاحك بعدها مع القمر، إنّها في حدّ ذاتها راية تتشح بالزرقة تسري فيها وتتحدّى الزمن وهي تخفق صيفاً وشتاءً لتلوّح بوعد حياة أبديّة.

أصبح عمر أرزتنا الآن خمسة وعشرون عاماً. هذا وفق حسابات بستانيّ الحديقة العجوز الذي زرعها. وإذا كانت أوّل زهرة للكائن الإنسانيّ تظهر وهو بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره، فإنّ هذه الأرزة التي لن تعطي أوّل زهرة إلّا عندما تتجاوز أوّل قرن من حياتها، ليست الآن إلّا مجرّد طفلة بالمقارنة مع الإنسان.

والحقيقة أنّ هذه الأرزة تتقاسم مع الأطفال النضارةَ والجمالَ الصافي البكر، والفرحَ الدائم، ذلك رغم مافي جذعها من متانة واضحة وقوّة تجعلها شبيهة بعامود من حجر، ورغم تعالي فروعها

نحو السماء كتعالي يعقوب في معراجه. حركةُ الطيور خلالها تجعلها تضجّ بالحياة لتصبح فرداً في جوقةِ زقزقاتهم. حفيفُ أغصانها وهمساتُها التي ترتعش حتّى عندما تسكن الريح تؤكّد حضورها مثلما تؤكّد الأنفاسُ وجودَ الحياة. كما أنّ تساقط إبرها الجافّة خلال الموسم المعنيّ يختلف عن تساقط أوراق غيرها من الشجر: فليس في تساقط الإبر شيء من الحزن، خاصّة وأنّه يفرش الأرض حولها بظلّ قرمزيّ مخمليّ. أمّا صراعها مع الريح عند هبوبها من الشمال فيشبه خفّة الأطفال ومرحهم عندما يلعبون بالثلج أو نشوة الشباب الرياضيّين عندما يثملون بحركاتهم على قمم جبال الألب.

وإذا عصفت رياح الجنوب ترى الشجرة تعزف بدورها سمفونية أسى تحكي أساطير الغابة وأهـوال العواصف وغضب الأرواح الشيطانيّة وهي تندفع ضد قوى البشر والطبيعة: لكنّ هناك في أعماق غضبها كما في أعماق صوت الأقوياء المتجبّرين وعداً، ثقةً بنصرٍ قادم. لأنّ العناصر ستهدأ وسيعود الضياء، يعود الربيع.

الربيع، أجل الربيع، لقد عاد الربيع هذا العام أيضاً: وقد أكملت الشجرة الخامسة والعشرين من عمرها، لمعت قشرة جذعها تحت الشمس كأنّها درع من برونز منقوش بينما اهتزّت أغصانها كأنّها أغصان أشجار مقدّسة من التي يعلّق عليها الكهنة القدامى آلاتاً موسيقيّة تصاحب بعزفها طقوس عباداتهم.

كثرت عوائل الأقحوان وانتشرت في الحقل. هناك طفلة تنحني لتتمتّع بمنظرها كأنّها أختها الصغيرة، لقد فوجئت بجمالها الدقيق وسرّت بها أكثر من سرورها بعظمة الشجرة العملاقة التي ترتفع فوقها كالمعبد. إنّ الأطفال يرون أكثر ممّا يرى الكبار عجائب الأرض المدهشة لأنّها أقرب إليهم، فحصاة أو سنبلة شوفان أو دعسوقة حمراء

تظهر لهم كأنّها معجزة من المعجزات. لكن أوَ ليست هي معجزة حقّاً؟ ها هي بيتي الصغيرة، أصغر مَنْ في العائلة – في شهرها الثامن عشر من العمر – منكبّة على مراقبة هذه المعجزات: أكثر ما يلفت انتباهها هي تلك الدعسوقة الحمراء الثابتة على النبتة، إنّها لا تجرؤ على لمسها بينما لا تتواني عن صفع زهور الأقحوان الوديعة، ثّم إنّها تقفز وترتعش وتصرخ عندما تنفتح الحشرة فجأة كالزهرة لتطير عالياً نحو الشجرة. عندها فقط يبدو أن بيتي تدرك أنّ ذلك العملاق موجود، وتتأكّد من وجود الشجرة: فتنظر إلى وهج أغصانها بينما تتخلّلها أشعّة الشمس وتريح يدها الصغيرة على جذعها ثمّ تكشّر وتطلق أوّل احتجاج في حياتها وهي تؤكّد أمام نفسها وأمام الأشياء حولها:

– هذا كلّه بيتي، واضح!

أجل، كلّ شيء هو لبيتي، ومن يستطيع أن ينتزع منها شيئاً منه؟ حتّى الشجرة الكبيرة هي لها، هي، أكثر من الأشياء الصغيرة العارضة حولها، إنّها أخت لها كما كانت أختاً لكلّ الأطفال الذين سبقوها، وكما ستكون لكلّ الأطفال الذين سيأتون بعدها. ذلك حتّى تزهر زهرتها الأولى وترفرف عالياً في السماء كراية زرقاء بذات زرقة السماء، ترفرف وتبارك الأجيال التي صدّقت أسطورتها بايمان راسخ وبهجة عارمة.

Grazia Deledda

غراتسيا ديليدّا (1871–1936) روائيّة وشاعرة ومؤلّفة مسرحيّة اشتهرت بخصوبة إنتاجها الأدبي. ذاع صيتها في إيطاليا وفي أنحاء العالم حتّى إنّها أصبحت في عام 1926 ثاني امرأة تحصل على جائزة نوبل العالميّة للآداب وذلك تقديرا لأدبها الذي «أبرز بشكل متميز مُثلاً سامية وقدرةً على تصوير واقع الحياة والإنسان بعمق وحرارة».

بدأت ديليدّا حياتها الأدبية وهي في ريعان الصبا بنشر قصصها في صحف من الدرجة الثانية مختصّة بالموضة. ثم اشتهرت بعد أن انتقلت من بلدتها نوّرو في جزيرة سردينيا إلى العاصمة روما حيث تزوّجت، كما تمكّنت من توطيد صلاتها مع العالم الأدبي والفكري الإيطاليّ. في عام 1895 بدأت بنشر روايات مثل «نفوس شريفة» و«العدالة» و«بعد الطلاق» وكثير غيرها.

أثارت رواياتها إعجاب مشاهير إيطاليّين وعالميّين مثل جوفانّي فيرغا و د. اتش. لورنس الذي كتب مقدمة للترجمة الانكليزية لروايتها «الأم» و مكسيم غوركي الذي نصح أديبة روسيّة شابّة بالاقتداء بديليدّا وأدبها.

بنت ديليدّا أدبها على أسس من الواقعيّة المحليّة، وارتبطت

أعمالها ارتباطاً وثيقاً بموطنها الأصلي أي جزيرة سردينيا. ومن هنا التشابه الكبير بين أماكن جزيرة سردينيا وطبيعتها وبين نفسيّة كثير من الشخصيّات في رواياتها.

حاولت ديليدّا أن تضع أقدار الشرّ والخطيئة، التي صوّرتها بألوان قاتمة، مقابل الرغبة في التغلّب عليها والتحرّر منها والتمتّع بالحياة وبالطبيعة الطلقة ذات المظاهر الشاعريّة. لهذا نرى أنّ أعمال الكاتبة مليئة بمشاعر الحبّ العنيفة وبالآلام التي تصاحبها.

لم يمنعها الاقتراب من تيّارات الواقعيّة السائدة من اعتماد أسلوب متميّز فريد من نوعه قائم على إبراز الطابع المحليّ ومآسي الشخصيّات مع النبش في أعماق النفس البشرية ومشاكلها وأبعادها الروحية.

إنّ أكثر شخصيّات ديليدّا هي شخصيّات قلقة، كثيراً ما تقع ضحيّة صراعاتها الداخليّة، غير أنّها سرعان ما تجد سنداً لها في العمق الديني خاصّة عندما تتحرك على أرضيّتها القاسية العنيفة، أرضيّة سردينيا.

عمل النقاد على تأطير أعمال ديليدّا في كثير من المذاهب الأدبيّة، فقيل الكثير عن الأدب المحليّ والأدب السرديني في أعمالها، والمذهب الواقعيّ والمذهب الانحطاطيّ. لكنّ نقادا آخرين رأوا في أعمالها شاعريّة من نوع خاص ومدرسة أدبيّة في حد ذاتها.

هذا الكتاب هو ترجمة لكامل مجموعة قصص «حكايات من سردينيا» فضلاً غن قصّة «أرز لبنان» المأخوذة عن كتاب للمؤلّفة بنفس العنوان.

ماتت ديليدّا إثر مرض عضال ودفنت في كنيسة عذراء الوحدة في بلدتها نوّرو في سردينيا كما تحوّل بيتها هناك إلى متحف تاريخي.

أهمّ الأعمال

- أحلى أزهار ساردينيا Fior di Sardegna
- طريق الشرّ La via del male
- حكايا من ساردينيا Racconti sardi
- نفوس شريفة Anime oneste
- بعد الطلاق Dopo il divorzio
- إلياس بورتولو Elias Portolu
- رماد Cenere
- حنين Nostalgie
- اللبلاب L'edera
- أقصاب في مهبّ الريح Canne al vento
- ماريانّا سيركا Marianna Sirca
- الأمّ La madre
- الهروب إلى مصر La fuga in Egitto
- خاتم الحبّ Il sigillo d'amore
- كوزيما Cosima
- أرز لبنان Il cedro del Libano

لوحة تصوّر ديليدّا في صباها

نبذة عن سيرة المترجم

نبيل رضا المهايني

Nabil R. Mahaini

المترجم خلال إحدى ندوات الصندوق الدولي للتنمية الزراعية في دمشق عام 2012

- من مواليد دمشق 1944.
- أقام في ايطاليا للدراسة ثمّ العمل بين عامي 1963 و 1986.
- تخرج عام 1969 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة فلورنسة،
- ثم تخرج عام 1973 باختصاص علوم الرأي العام – إخراج تلفزيون وسينما من جامعة الدراسات الاجتماعية في روما.
- عمل قبلها وبعدها في مجالات التلفزيون والسينما في ايطاليا.
- ومراسلاً لكثير من المجلات الأدبية والعامة العربية، من فلورنسة وروما.
- ترجم وقتها وفيما بعد عدة كتب عن الايطالية. وقد نشر كثير منها في بيروت ودمشق.

- أخرج كثيراً من الأفـلام التلفزيونية في مختلف المجالات الوثائقية والإنمائيّة والإرشاد الزراعي، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دولية وعربية.
- يعمل منذ عام 1983 خبيراً لدى الصندوق الدولي للتنمية الزراعية– إيفاد، في روما بداية ثم في دمشق.
- يعمل الآن كممثل ميداني لإيفاد في سورية.

كتب صدرت للمترجم

1. أرز لبنان وقصص من سردينيا، غراتسيا ديليدّا
2. جثث فخمة (السياق – طبعة ثانية)، ليوناردو شاشّا
3. بينوكيو، كارلو كولّودي
4. حبّ في سردينيا، ميلينا آغوس، Mal di Pietre
5. من هو الله؟ كتاب الكتروني بالعربية والإنكليزية والإيطالية والفرنسيّة
6. أسماء الله الحسنى. كتاب الكتروني بالعربية والإنكليزية والإيطالية والفرنسيّة
7. مختارات من الأدب الإيطالي الكلاسيكي، تأليف وترجمة
8. مختارات من الأدب الإيطالي الحديث، تأليف وترجمة
9. أمريكان الضيعة، لويجي كابوانا، Gli Americani di Rabbato
10. المؤرّخون العرب للحروب الصليبيّة، فرانشيسكو غابرييلي
11. قلب، ادموندو دي آميشيس، Cuore
12. شيزارِه بافيسِه، حياته وشعره وأعماله
13. صاحبة النزل، كارلو غولدوني
14. الماندراغولا، نيكولا مكيافيلّي
15. السياق، ليوناردو شاشّا
16. الصحارى العربيّة، نصوص وصور

17. المسرح الإرشادي في سوريّة
18. إيفاد في سوريّة
19. أنا وهو، ألبرتو مورافيا
20. الثورة المتواصلة

قيد الإصدار

1. ايزابيل، آنطونيو تابوكّي – Per Isable, Una Manadala
2. موعد لا يأتي، آنطونيو تابوكّي – Il Filo dell'Orizzonte